مجلة كلية الآداب بالوادي الجديد- مجلة علمية محكمة- ديسمبر ٢٠٢٢

فاعليَّة الخطاب الحجاجي في وصية أمامة بنت الحارث لابنتها ليلة زفافها (دراسة في تقنيَّات تبليغ الخطاب)

د. شوزان نشأت عبد الرازق عبد اللاه(*)

عنيت الدراسة برصد فاعلية الخطاب الحجاجي في خطاب الوصية، ففي هذا البحث تطالعنا وصية ذهبية لامرأة عاشت في بيئة جاهلية؛ لكنها خَبُرت الحياة فصاغت تجربتها لابنتها لمَّا حان زفافها بطريقة عكست قدرتها على الانتقاء اللغوي للألفاظ؛ لذا تحققت فاعلية الخطاب الحجاجي في الوصية من طريقة بنائه.

فجمعت أمامة في الوصية بين ما يهدف إليه مؤلف الخطاب، وما يحدثه الخطاب من تأثير ناتج عن اتباع استراتيجيات وآليات إقناعيّة، وتعامل مع اللغة له خصوصيته وتميزه، وهو ما يمكن التعبير عنه بفاعلية الخطاب. لذا تناول البحث في التمهيد بعض المفاهيم النظرية التي لها علاقة بموضوعه.

وتناول في جانبه التطبيقي توظيف أمامة للحِجاج البلاغي كالتمثيل والاستعارة والطباق والمقابلة والسجع والجناس والوصف بالصيغ اللغوية كالمبالغة والتفضيل، كما استثمرت أمامة في تحقيق مقصدها الإقناعي الروابط الحجاجية كروابط التعليل للطلب وروابط العطف، والتوكيد وأسلوب الشرط وأسلوب القصر. ثم انتهي البحث بخاتمة تضمنت أهم النتائج التي توصل إليها البحث على هدي من المنهج الوصفي التحليلي.

الكلمات المفتاحيّة: فاعليّة الخطاب، الحِجاج البلاغي، الوصية، الروابط الحجاجية، التداولية.

(*) مدرس البلاغة والنقد بقسم اللغة العربية– كلية الآداب بقنا جامعة جنوب الوادي
shuzannshat@art.svu.edu.eg

Effect of Hajjaji Discourse on the Advice of Umamah bint al-Harith to her Daughter on the Night of her Marriage (Study in Delivering Communication Techniques)

The study addresses monitoring the effectiveness of the Hajjaji discourse in the will letter. In this research, we deal with a golden will of a woman who lived in a pre-Islamic environment; but she experienced life, then formed her experience to her daughter's on the night of her daughter's marriage in a way that reflects her ability to linguistically select words. Accordingly, the effectiveness of the Hajjaji discourse in the advice was met through the way it was built In the advice, Umama combined the author's purpose with the impact of the discourse as a result of persuasive strategies and mechanisms, along with linguistic dealing that has its own privacy and distinctiveness, which can be expressed as the effectiveness of the discourse

Accordingly, the research in the introduction, dealt with some theoretical concepts related to its subject. In its applied aspect, the research deals with Umamah's application of rhetorical argumentation, such as representation, metaphor, antithesis, paradox, assonance, alliteration and description in linguistic forms such as exaggeration and superlative. In achieving her persuasive effect, Umamah used the Hajjaji connections as the explanation of the request, conjunctions, assertion, conditionality and confinement style. The research was concluded with a conclusion that included the most significant findings of the research based on the analytical descriptive approach

Keywords: Discourse effectiveness, rhetorical argumentation, will, Hajjaji connections, deliberativeness

المقدمة

الحمد لله الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم، والصلاة والسلام علي سيد البلغاء وإمام الفصحاء سيدنا محمد وعلي آله وأصحابه أجمعين. وبعد،

يزخر التراث العربي بكم غزير من الخطابات ذات البعد الإقناعي التداولي، ومنها الخطبة والوصية والرسالة والمناظرات.

والوصايا من الفنون النثرية المتوارثة عني بها الأدب العربي لما تتضمنه من قيم وأفكار، فهي خلاصة مكثفة لتجارب عميقة في مختلف شؤون الحياة، ولا بد أن يكون الموصي ممن رزق القدرة والتمكن من ناصية القول.

وإن كان المنظرون البلاغيون المحدثون [١] يرون أن كل نص –غير النصوص العلمية– يحمل بالضرورة بُعدًا تداوليًا حجاجيًّا، وهذا يعني أنه حتى النصوص التخيلية هي في الختام تحمل حجاجا ما دامت تحمل رسالة للتبليغ.

وترجع أهمية الحجاج في الدراسات الحديثة إلى العودة القوية للبلاغة تحت تسمية البلاغة الجديدة، حيث فرقت هذه الدراسات بين مفهوم الجدل والحجاج، والذي تعود جذوره إلى اليونانيين: فبدأ عند سقراط والسفسطائيين حوارًا، وأصبح عند أفلاطون جدلاً، ثم تطور عند أرسطو قياسًا وبرهانًا؛ إذ ردّ الباحثون بدايات التفكير الحجاجي إلي أرسطو الذي عدّ الخطابة قوة تتكلف الإقناع. [٢]

فقد شكلت القضايا البلاغية جزءًا مهمًا من استراتيجية الإقناع، وأصبح الحِجاج سبيلاً من سبل التداول الحديثة اعتني به الأدباء، فأعطي لأساليبهم قوة وتأثيرًا في الملتقي وعقله.

(١) انظر خطاب الوصية في التراث العربي (مقاربة في بلاغة الحِجاج)، رسالة ماجستير ، للباحث: إبراهيم سماني، إشراف، بو جمعة عمارة، لسنة٢٠١٦-٢٠١٧م، المقدمة، صـ ب

(٢) في بلاغة الخطاب الإقناعى (مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية)، د. محمد العمري، افريقيا الشرق– المغرب، ط– ثانية٢٠٠٢م، صـ١٨.

فقد تبنت النظرية الحجاجية فكرة أننا نتكلم بقصد التأثير، وأن اللغة تحمل وظيفة حجاجية ذاتية؛ لأن اللغة وسيلة تواصل غايتها الإقناع والتأثير، فاللغة كما قال أوستن: "ليست أداة أو وسيلة للتخاطب والتواصل والتفاهم فحسب، وإنما اللغة وسيلتنا للتأثير في العالم وتغيير السلوك الإنساني من خلال مواقف كليّة."(١)

ويعد خطاب الوصية من أبرز الخطابات الحجاجيّة الإقناعيّة التي يهدف الموصِي للتأثير بمحتواها ومادتها في ذات الموصَي واستمالته.

وقد آثرتُ دراسة الحِجاج في الوصية؛ لأنها لغة نثريّة، متخيرة بعناية ودقة لإقناع الآخر، والتأثير العقلي والعاطفي في المخاطب.

لذا ينهض هذا البحث للكشف عن آليات الإقناع التي استخدمتها الأعرابية أمامة بنت الحارث في نص الوصية التي قدمتها لابنتها –أم إياس– في ليلة زفافها، لنري كيف ربطت الحجج بالنتائج لتؤدي غرضها التأثيري في النص.

ولأن وصية أمامة تحمل رسالة تربوية تسعي لإقناع المخاطب –ابنتها– للأخذ بها عبر وسائل وأدوات حجاجيّة ضبطها علماء البلاغة وأحصوها، لذا كان هدف البحث قراءة التراث العربي متمثلا في وصية أمامة لابنتها أم إياس في ضوء التراث البلاغي الموروث عن الأسلاف قراءة جديدة، ففي تلك القراءة وغيرها حياة جديدة للبلاغة، وانبعاث للنظريات الحجاجيّة عبر الوقوف على آليات الإقناع التي حققت للوصية القبول والتسليم لدي المخاطب.

والسؤال الذي يحاول البحث الإجابة عنه عبر مباحثه هو هل وصية أمامة بنت الحارث كانت خطابًا تواصليًّا قام على العناصر التداوليّة التفاعليّة (المرسل– الرسالة– المتلقي)، وهل ظهرت في الوصية آليات الحجاج لتحقيق الإقناع؟

(١) نظرية أفعال الكلام العامة كيف ننجز الأشياء بالكلام، أوستين، ترجمة: عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق– الدار البيضاء، ط٢، ٢٠٠٨م، صـ٦.

وقد قام البحث على فصلين أحدهما يتناول آليات الحجاج عبر الوجوه البلاغية في الوصية، واشتمل على عدة محاور منها الوصف بالصيغ اللغوية كصيغ المبالغة واسم التفضيل، ومنها الصور البيانيّة كالاستعارة والكناية، ومنها القيم البديعية وأبرزها السجع والجناس والطباق والمقابلة.

والفصل الثاني يتناول: الروابط الحجاجيّة في الوصية والتماسك النصي، وقد اشتمل على عدة محاور منها: روابط التعليل والشرط، ومنها التعليل للحجاج الطلبي ومنها روابط العطف الحجاجي كالواو والفاء، ومنها التوكيد بأشكاله المختلفة.

وقد اشتمل البحث على تمهيد ضمنته مفهوم الحجاج لغة واصطلاحًا، واهتمام علماء البلاغة في العصر الحديث به، وأنواعه والغاية منه، ثم مفهوم الوصية وخصائصها الفنية والأسلوبية، وخضوعها لملابسات العصر، وأخيرًا مفهوم المقاربة التداولية.

وقد اقتضت طبيعة البحث اعتماده على المنهج الوصفي التحليلي ولمناسبته لتحليل الخطابات الحجاجيّة.

أما عن الدراسات السابقة فقد حرص البحث علي تحليل خطابات الوصية تحليلا حجاجيًّا بلاغيًّا؛ لذا يستنير البحث ببعض الدراسات السابقة عليه والتي منها: "في بلاغة الخطاب الإقناعي والبلاغة الجديدة بين التخييل والتداول" للدكتور: محمد العمري، والحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية ، لعبدالله صولة، وآليات الحجاج اللغوي وشبه المنطقي لوصايا الحكماء في العصر الجاهلي (مقاربة تداولية) ، لعلاء الدين أحمد الغرايبة، بحث منشور في مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية– جامعة الزيتونة، العدد الرابع، لعام ٢٠١٩م وغيرها من المراجع المثبتة في هوامش البحث. ثم انتهى البحث بخاتمة اشتملت على أبرز النتائج التي تم التوصل إليها.

التمهيد

البلاغة بين يدي الحِجاج والتداولية:

يُعد الحجاج سبيلا من سبل التداول الحديثة، وإن كانت جذوره ضاربة في أقدم الخطابات اللغوية؛ إذ "يميل الباحثون –عادة– إلي رد بدايات التفكير في الحجاج إلي أرسطو(١) وقد وضع أساس نظرية الحجاج في اللغة اللغوي الفرنسي "أزفالد ديكرو" حيث تنطلق النظرية من الفكرة الشائعة التي مؤداها، أننا نتكلم عامة بقصد التأثير، وهي تحاول أن تبين أن اللغة تحمل بصفة جوهرية وظيفة حجاجيّة، فدراسة الحجاج تنتمي إلي البحوث التي تحاول اكتشاف منطق اللغة، أي القواعد الداخلية للخطاب، والمتحكمة في تسلسل الأقوال وتتابعها بشكل متنامٍ وتدريجي."(٢)

"فاللغة لا تؤدي فقط وظيفة مرجعية تحيل إلى مدلول؛ بل تؤدي وظيفة تداوليّة تتفاوت بحسب القصد أو الهدف الذي من أجله يسوق المتكلم خطابه."(٣)

وقديمًا رأي العلماء (٤) أن اللغة والبلاغة بوجه عام تؤدي ثلاث وظائف هي:

١- **الوظيفة الإعلامية:** من حيث أن الغرض البلاغي هو توصيل المعلومات وإبلاغ الحقائق، كما يحدث في الاتصال الإعلامي بوسائله المختلفة.

(١) الحِجاج، كريستيان بلانتان، ترجمة: عبد القادر المهيري، مراجعة عبد الله صولة، دار سيناترا، المركز الوطني للترجمة، تونس، ط١، ٢٠٠٨م، صـ١١.

(٢) اللغة والحجاج، د. أبو بكر العزاوي، العمدة– الدار البيضاء، ط١، ١٤٢٦-٢٠٠٦م، صـ٨ (المقدمة)

(٣) استراتيجيات الخطاب (مقاربة لغويّة تداوليّة)، عبد الهادي بن ظاهر الشهري، دار الكتاب الجديد المتحدة– بني غازي، ط. أولي ٢٠٠٣م، صـ٧.

(٤) نحو بلاغة جديدة، د. محمد عبد المنعم خفاجي، د. عبد العزيز شرف، مكتبة غريب، القاهرة، صـ٩٢.

٢- **الوظيفة التعبيرية:** ذلك أن البلاغة قد تتخذ طابعًا تعبيريًّا في الفن والأدب بوجه عام بهدف التعبير عن المشاعر أو التحريك لمشاعر أو اتجاهات الشخص المتلقي.

٣- **الوظيفة الإقناعية:** حين يستهدف الاتصال إقناع المتلقي أو جمهور المستقبلين بفلسفة محددة، أو رأي معين أو وجهة نظر ما، أو دفعه لعمل شيء ما، وهو ما يحدث في الاتصال الإقناعي بوجه عام.

وهكذا جمعت البلاغة الجديدة بين ما يهدف إليه مؤلف الخطاب وما يحدث الخطاب من تأثير ناتج عن اتباع استراتيجيات وآليات إقناعية وتعامل مع اللغة له خصوصيته وتميزه، وهو ما يمكن التعبير عنه بفاعلية الخطاب.

وذلك من منطلق أن نظرة البلاغة الجديدة للخطاب قد تمحورت حول الآليات التي تضمن نجاحه وفعاليته، وتناولت استراتيجيات الخطاب الحجاجي من مختلف أبعاده ومراميّه وغاياته، تلك الآليات التي تنجح في تقوية انخراط المخاطب بشكل يطلق لديه الاستعداد للعمل أو الفعل، أو الإقناع أو الثقة، والتي يمكن أن تتحقق في الوقت المناسب، أو على الأقل تجعله غير قادر علي رفض القول الحجاجي. (١)

وقد عَدّ اللسانيون الحِجاج من الظواهر الفعالية التداوليّة، بوصفه عملية ذات طابع جدلي إقناعي قائم على التزام صور استدلاليّة أوسع وأغني من البنيات البرهانية الضيقة، وما دامت جدلية فهي ذات طابع فكري واجتماعي، تأخذ بعين الاعتبار مقتضيات الحال من معارف مشتركة، ومطالب إخبارية، وتوجهات ظرفية. (٢)

(١) آليات الإقناع في كتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه، للقاضي الجرجاني، د. عبير عليوة إبراهيم، بحث منشور في حولية كلية اللغة العربية- الزقازيق، المجلد ٤١، العدد١، لعام٢٠٢١م، صـ٤٧٨.

(٢) في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، د. طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء- المغرب، ط. ثانية، ط ٢٠٠٠م، صـ٦٥.

وإذا كانت التيارات التداولية تشدد على أن سلوك الأفراد إزاء الخطاب مرهون بحجة صاحبه أي المتلفظ به، وبشكل أوسع ينظر محلل الخطاب في الشروط التي تجعل الخطاب ذا حجة (١)، فما مفهوم الحجاج لغة واصطلاحًا؟

الحجاج لغة:

جاء الحجاج في لسان العرب بمعني البرهان والجدال، والخصام بواسطة الأدلة والبراهين. "الحجة: البرهان، والحُجَّة مَا دُوفِعَ بِهِ الْخَصْمُ؛...، والوجه الذي يكون به الظفر عند الخصومة، وَهُوَ رَجُلٌ مِحْجاجٌ أَي جَدِلٌ. والتَّحاجُّ: التَّخاصُم؛ وَجَمْعُ الحُجَّةِ: حُجَجٌ وحِجاجٌ.... والحجة: الدليل والبرهان."(٢)

وقد تكون الْحُجَّةُ مُشْتَقَّةً مِنْ الْمَحَجَّةِ وَهِيَ جَادَّةُ الطَّرِيقِ؛ لِأَنَّهَا تُقْصَدُ، أَوْ بِهَا يُقْصَدُ الْحَقُّ الْمَطْلُوبُ. ويُقَالُ حَاجَجْتُ فُلَانًا فَحَجَجْتُهُ أَيْ غَلَبْتُهُ بِالْحُجَّةِ، وَذَلِكَ الظَّفَرُ يَكُونُ عِنْدَ الْخُصُومَةِ، وَالْجَمْعُ حُجَجٌ. وَالْمَصْدَرُ الْحِجَاجُ. وَمِنَ الْبَابِ حَجَجْتُ الشَّجَّةَ، وَذَلِكَ إِذَا سَبَرْتَهَا بِالْمِيلِ، لِأَنَّكَ قَصَدْتَ مَعْرِفَةَ قَدْرِهَا. (٣)

يقول صاحب معجم تاج العروس: الحَجُّ: (الغَلَبَةُ} بالحُجَّةِ) ، يُقَال: {حَجَّهُ} يَحُجُّه {حَجًّا، إذا غَلَبَه على} حُجَّتِه (٤) وجاء في أساس البلاغة: احتجَّ على خصمه بحجة شهباء وحاج خصمه فحجّه وسلك المحجّة أي الطريق الواضحة المنيرة، (٥) و(احْتج) عَلَيْهِ أَقَامَ الْحجَّة وعارضه مستنكرا فعله"(١)

(١) المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، دومينيك مانغونو، ترجمة: محمد يحياتن، الدار العربية للعلوم- بيروت، ط. أولي١٤٢٨هـ-٢٠٠٨م، ص ١٢-١٣.

(٢) لسان العرب، لابن منظور، (أبي الفضل محمد بن مكرم)، دار صادر- بيروت، ط٣، ١٤١٤هـ، مادة (حجّ)، ٢٢٨/٢.

(٣) مقاييس اللغة، لابن فارس (أبي الحسين أحمد)، ت: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر- بيروت، ط١، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م،٣٠/٢ مادة (حجّ).

(٤) تاج العروس من جواهر القاموس، للزبيدي، لمجموعة من المحققين، مطبعة الكويت، ط٢، ٢٠١٠م، ٤٦٠/٥مادة حجج.

(٥) أساس البلاغة، للزمخشري (أبي القاسم محمود بن عمر بن أحمد)، ت: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية- بيروت، ط. أولي،١٤١٩هـ- ١٩٩٨م،١٦٩/١ مادة (ح ج ج).

وإقامة الحجة وسيلة لإقناع الخصم بما لدي المرسِل من مضامين، فلا إقناع وتأثير إلا بإقامة الدليل والبرهان الحُجّة (٢)

مفهوم الحجاج اصطلاحًا:

انطلق موضوع الحجاج من البلاغة الحديثة فعرفه بيرلمان وتيتكا بأنه: "دراسة تقنيات الخطاب التي من شأنها أن تؤدي بالأذهان إلى التسليم بما يعرض عليها من أطروحات، أو أن تزيد في درجة ذلك التسليم"(٣)

والحجاج "سلسلة من الحجج تنتهي بشكل كلي إلى تأكيد النتيجة نفسها"(٤) ويتميز بإنجاز تسلسلات استنتاجية داخل الخطاب، وبعبارة أخري يتمثل في إنجاز متواليات من الأقوال بعضها بمنزلة الحجج اللغوية، وبعضها بمنزلة النتائج التي تستنتج منها (٥)

والحجاج خطاب لغوي مجازي يركز على قوة الحُجّة التي تفضي إلى الإقناع، أو تأكيده، وقد يجمع بين المعلومة والأسلوب الرفيع المؤثر. (٦)

من التعريفات السابقة يتبين أن غاية الدراسات الحجاجية هي الكشف عن استراتيجيّة الخطاب الهادف إلى استمالة المخاطب. فأنجح الحجاج ما وفق في

---

(١) المعجم الوسيط، (مجمع اللغة العربية)، مكتبة الشروق الدولية –القاهرة، ط. رابعة ٢٠٠٤م،١/١٥٦ مادة حِجّ

(٢) آليات الحجاج اللغوي وشبه المنطقي لوصايا الحكماء في العصر الجاهلي، مقاربة تداولية، علاء الدين أحمد الغرايبة، جامعة الزيتونة، مجلة العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة، المجلد ٤٦، ع ٤، ٢٠١٩م، صـ٦٥.

(٣) بلاغة الخطاب وعلم النص، د. صلاح فضل، عالم المعرفة- المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب- الكويت، ط١، ١٩٩٢م، ص:٦٨.

(٤) الحجاج في اللغة، لأبي بكر العزاوي ضمن كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته (دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة)، إعداد وتقديم: حافظ علوي إسماعيل، عالم الكتب- الأردن، ط. أولي ٢٠١٠م، ١/٥٧.

(٥) اللغة والحجاج، لأبي بكر العزاوي، صـ١٦.

(٦) طرائق الحجاج في التوقيعات الأندلسية، د. عامر محمود ربيع، المجلة الأردنية في اللغة العربية وآدابها، المجلد ١٧، العدد٣، لعام ٢٠٢١م، صـ ٢٧٠.

جعل حدة الإذعان تقوي درجتها لدي السامعين بشكل يبعثهم على العمل المطلوب [١] فبقدر قوة طرح الحجج يكون مستوي التأثير والإقناع في المتلقي فالمرسل يتوجه بالمبررات المقبولة. فالحجاج إذن تقنية تتعدي المعرفة السطحية، فهي إدراك عميق للغايات والمضامين في الرسالة.

وكل خطاب أي كان نوعه. يسعي إلى إقناع المخاطب عبر استغلال طاقات اللغة بما تتضمنه من تقنيات بيانيّة باعثة على إذعان السامع.

لذا عَدَّ الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) جماع البلاغة البصر بالحُجّة، والظفر بالخصم والوجوه البلاغية من بيان ومعانٍ وبديع هي في حقيقة الأمر أسلوب في الفصل والوصل الحجاجي، وهذه الوجوه ذات بُعد تواصلي تفاعلي في الخطابات المكتوبة أو الشفوية.

وقد ورد الحجاج في القرآن الكريم في قوله تعالي: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رِبِّهِ﴾ (البقرة: ٢٥٨/٢) وفي قوله تعالي ﴿هَا أَنتُمْ هَؤُلاء حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ (آل عمران: ٦٦)

كما ورد لفظ الحجاج في قوله تعالي: **﴿وَحَآجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئاً وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ﴾ (الأنعام: ٨٠)**

فقد جاء الحجاج في الآيات الكريمات بمعني المجادلة والمحاجة والمخاصمة وإبطال الرأي. وقد جاء في المعجم الفلسفي أن الحجاج "جملة من الحجج التي يؤتى بها للبرهان أو هو طريقة تقديم الحجج والاستفادة منها". [٢]

(١) الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، د. عبد الله صولة، دار الفارابي- بيروت، ط. أولي ٢٠٠١م، صـ ٢٧

(٢) المعجم الفلسفي، د. جميل صليبا، دار الكتاب اللبناني- بيروت، ط١، ١٩٨٢م، ١/٤٤٥-٤٤٦.

يقول الطاهر بن عاشور في تفسيره: "معني حاجّ خاصم، وهو فعل جاء على زنة المفاعلة ولا يُعرف لحاج في الاستعمال فعل مجرد دال على وقوع الخصام ولا تعرف المادة التي اشتق منها. ومن العجيب أن الحجة في كلام العرب البرهان المصدق للدعْوَي"(١) وفي موطن آخر يقول رابطا بين كلمة الجدل وكلمة الحجاج: "وَالْمُجَادَلَةُ مُفَاعَلَةٌ مِنَ الْجَدَلِ، وَهُوَ الْقُدْرَةُ عَلَى الْخِصَامِ وَالْحُجَّةِ فِيهِ، وَهِيَ مُنَازَعَةٌ بِالْقَوْلِ لِإِقْنَاعِ الْغَيْرِ بِرَأْيِكَ، وَمِنْهُ سُمِّيَ عِلْمُ قَوَاعِدِ الْمُنَاظَرَةِ وَالِاحْتِجَاجِ فِي الْفِقْهِ عِلْمَ الْجَدَلِ، (وَكَانَ يَخْتَلِطُ بِعِلْمِ أُصُولِ الْفِقْهِ وَعِلْمِ آدَابِ الْبَحْثِ وَعِلْمِ الْمَنْطِقِ) "(٢)

وهكذا يرد الحجاج في القرآن مرادفًا لكلمة الجدل، وقديمًا عرّف ابن أبي الإصبع المصري "المذهب الكلامي" تعريفًا يقترب به من الاحتجاج حيث قال: "أَنَّهُ احْتِجَاجُ الْمُتَكَلِّمِ عَلَى مَا يُرِيدُ إِثْبَاتَهُ بِحُجَّةٍ تَقْطَعُ الْمُعَانِدَ لَهُ فِيهِ عَلَى طَرِيقَةِ أَرْبَابِ الْكَلَامِ وَمِنْهُ نَوْعٌ مَنْطِقِيٌّ تُسْتَنْتَجُ مِنْهُ النَّتَائِجُ الصَّحِيحَةَ مِنَ الْمُقَدِّمَاتِ الصَّادِقَةِ". (٣)

المقاربة التداولية:

والمقصود بالمقاربة التداولية الواردة في متن البحث هي تلك النظرية النقدية التي تدرس الظواهر الأدبية والثقافية والفنية والجمالية في ضوء التداوليَّات اللسانية ويعني هذا أن المقاربة التداولية تدرس النص أو الخطاب الأدبي في علاقته بالسياق التواصلي، والتركيز على أفعال الكلام، واستكشاف العلامات

(١)التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، الدار التونسية- تونس، ١٩٨٤م، ٣٢٦/٧(الأنعام :٨٠)

(٢) المرجع السابق، ١٩٤/٥ (النساء: ١٠٧/٤)

(٣) انظر: مفهوم المذهب الكلامي والجدل والحجاج الآتي: البرهان في علوم القرآن، للزركشي (أبي عبد الله بدرالدين محمد بن عبد الله) ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة – بيروت، ١٩٧٢م، ٢٤/٢-٢٧ فصل في معرفة جدله، والإتقان في علوم القرآن، للسيوطي (جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر)، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة، ١٣٩٤-١٩٧٤م، ٦٠/٤ فصل في جدل القرآن. وبديع القرآن، لابن أبي الإصبع المصري، تقديم وتحقيق: حفني محمد شرف، مكتبة نهضة مصر بالفجالة، ط١، ١٣٧٧هـ- ١٩٥٧م، صـ٢١

المنطقية الحجاجية، والاهتمام بالسياق التلفظي والبحث فيه، فهي نظرية تعالج شروط التبليغ والتواصل الذي يقصد إليه الناطق من وراء استعمال اللغة؛ إذ تركز على عنصر القصدية في الخطاب. وبهذا تكون التداوليات اهتمت بالدور والرسالة والسياق الوظيفي.

لذا يقول الباحث الألماني " لوسبرج " إن البلاغة نظام له بنية من الأشكال التصورية واللغوية، يصلح لإحداث التأثير الذي ينشده المتكلم في موقف محدد. وبنفس الطريقة يري " ليتش " أن البلاغة تداولية في صميمها؛ إذ إنها ممارسة الاتصال بين المتكلم والسامع بحيث يحلان إشكالية علاقتهما؛ مستخدمين وسائل محددة للتأثير على بعضها.

ولذلك فإن البلاغة والتداولية تتفقان في اعتمادهما على اللغة كأداة لممارسة الفعل على الملتقي، على أساس أن النص اللغوي في جملته إنما هو نص في موقف. مما يرتبط لا بالتعديلات التي يفرضها أشخاص المرسل والمتلقي وموقعهما على معناه فحسب؛ وإنما بالنظر إلى تلك التعديلات التي تحدث في سلوكهما أيضًا. [1]

وبناءً على ما سبق تهدف هذه الدراسة إلى التعرف على أهم الآليات الإقناعيَّة التي استثمرتها أمامة بنت الحارث في وصيتها لابنتها والكشف عن تنوع تلك الآليات في علاقتها بموضوع الخطاب وتشكيل بعده الحجاجي.

لأن الوصية من الفنون المؤثرة في المتلقي ويمتد أثرها في الأجيال المتتابعة على مر العصور؛ بما تنطوي عليه من حكم وأمثال وقيم وإرشادات. فالوصية لا تقف عند حدود العصر الذي قيلت فيه، وقد برعت أمامة بنت الحارث الشيباني في وصيتها الذهبية، التي صدرت عن امرأة عاشت في بيئة جاهلية، لكنها خَبُرتْ الحياة، فصاغت تجربتها لابنتها لما حَانَ زواجها.

---

[1] بلاغة الخطاب وعلم النص، د. صلاح فضل، الشركة المصرية العالمية لونجمان – القاهرة، ط. أولي ١٩٩٦ م، صـ ١٢٣ - ١٢٤

مفهوم الوصية وخصائصها الفنية والأسلوبية:

الوصايا لون من ألوان الأدب التربوي، " الغاية منها النصح والإرشاد إلى الطريق القويم، والترغيب في التزام الفضائل، والتخلق بالأخلاق الكريمة. وتنطوي على مقدار كبير من الحكم والأمثال، وتتضمن خلاصة الخبرة في الحياة، وتعبر عن نظرة الموصي إلى الدنيا وأحوالها، ورأيه في البشر وطباعهم وسلوكهم". (١)

وجاء في لسان العرب أوصي الرجل ووصاه عهد إليه، وأوصيته ووصيته، وتوصية وإيصاء بمعني، وتواصي القوم؛ أي أوصي بعضهم بعضًا. (٢)

والوصايا كلام مستخلص من تجارب الحياة وسبر أغوارها، فهي إرشاد وتوجيه للموصي، ليهتدي بها ويتخذها دليلاً في حياته؛ ليتجنب الوقوع في الأخطاء. وقد جعل الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي لون من ألوان الخطابة قاصرة على الأهل والأقارب والأصدقاء، وهي كثيرة في العصر الجاهلي، وتمتاز بجمال جملها وتناسبها وما يشيع فيها من حكمة وصدق وتعبير، والوصية والنصيحة عنده بمعني واحد. (٣)

تعكس الوصايا تجربة حياتية وخبرة إنسانية، وقد حفلت وصية أمامة بنت الحارث بالنظرة الثاقبة والرأي الصائب؛ لأنها وليدة خبرات وتجارب طويلة "وربما كانت الوصية توجيهًا تربويًّا يعلّم فيه الكبير الصغير، والمجرب المتمرس بأمور الدنيا الغريرالناشئ" (٤)

(١) الأدب الجاهلي (قضاياه، وأغراضه، أعلامه، فنونه)، د. غازي طليمات، والأستاذ: عرفات الأشقر، مكتبة الإيمان – القاهرة، ط. أولي ١٤١٢ه – ١٩٩٢م، صـ ٥٦٠

(٢) لسان العرب، لابن منظور، ٣٩٤/١٥.

(٣) الحياة الأدبية في العصر الجاهلي، د. محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل – بيروت، ط. أولي ١٤١٢ه – ١٩٩٢م، صـ١٥٢

(٤) الأدب الجاهلي، د. غازي طليمات، صـ ٥٦١

وفي الوصايا ينعكس الفكر الهادئ العميق، والحكمة الرزان، والواقعية في النظر إلى مشكلات الحياة، واستنباط المعاني من التجربة الحية لا الفلسفة النظرية، ومن الناحية الفنية تتسم الوصايا بالجمع بين اللغة المرسلة والأسلوب المسجع والجمل القصيرة المتوازنة، وضعف الروابط بين الأفكار، والاعتماد على الإنشاء من أمر ونداء ونهي. (١)

بين يدي الوصية:

تطالعنا في هذه الدراسة وصية لامرأة عاشت في العصر الجاهلي؛ لكنها صاغت خبرتها لابنتها لما حانّ زواجها. هذه الأم هي أمامة بنت الحارث (٢)، وابنتها أم إياس، حيث وضحت الأم في هذه الوصية واجبات الزوجة، وبينت في مطلع الوصية أهمية الوصية، وتبدو قيمة الوصية هنا فيما اشتملت عليه من قيم إيجابية وآليات حجاجية استخدمت فيها أدوات بلاغية تصلح لكل زمان ومكان. فكانت تلك الوصية تعبيرًا عن تجربة إنسانية تدفعها فطرة صافية نقية.

وردت الوصية في كتب الأدب (٣)، فقد ذكروا أن الحارث بن عمرو ملك كندة لما بلغه جمال ابنة عوف بن محلم الشيباني، وكمالها وقوة عقلها، دعا امرأة

(١) المرجع نفسه، صـ ٥٦١

(٢) انظر في ترجمة أمامة بنت الحارث كتاب، الأعلام، لخير الدين الزركلي (خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس) دار العلم للملايين – بيروت، ط. ١٥، ٢٠٠٢م، ١١/٢

(٣) انظر في مناسبة الوصية: جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، لأحمد زكي صفوت، المكتبة العلمية – بيروت، د.ت، ١٤٢/١

والعقد الفريد، لابن عبد ربه الأندلسي، دار الكتب العلمية – بيروت، ط. أولي ١٤٠٤ه، ٨٩/٧، وفي كتاب مجمع الأمثال، للميداني (أبي الفضل أحمد بن محمد بن إبراهيم)، ت: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار المعرفة – بيروت، ٢/ ٢٦٢، وفي كتاب: جمهرة الأمثال، لأبي هلال العسكري (الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد)، دار الفكر – بيروت، ١/ ٥٦٩ – ٥٧٠

من كندة يقال لها عصام ذات عقل ولسان وأدب وبيان، وقال لها: اذهبي حتى تعلمي لي علم ابنة عوف. فمضت حتي انتهت إلي أمها، وهي " أمامة بنت الحارث " فأعلمتها بما قدمت له، فأرسلت أمامة إلي ابنتها، وقالت: أي بنية هذه خالتك أتت لتنظر إليك، فلا تستري عنها شيئًا إن أرادت النظر من وجه أو خلق، وناطقيها إن استنطقتكِ.

فدخلت عصام عليها؛ فنظرت إلى ما لم تر عينها مثله قط بهجةً وحسنًا وجمالاً، فإذا هي أكمل الناس عقلاً، وأفصحهم لسانًا؛ فخرجت من عندها وهي تقول: " ترك الخداع من كشف القناع " فذهبت مثلا.

ثم انطلقت إلى الحارث، قال: أخبريني: قالت: أخبرك صدقًا وحقًا.

ثم وصفت له جمال أم إياس وما رأت من حسن المنظر وفصاحتها وبيانها وعقلها الوافر وجوابها الحاضر، فأرسل الملك إلي أبيها فخطبها فزوجها إياه.

نص الوصية: (١)

فلما حُملت إلى زوجها قالت لها أمها أمامة بنت الحارث:

"أي بنية: إن الوصية لو تركت لفضل أدب، تركت لذلك منك؛ ولكنها تذكرة للغافل، ومعونة للعاقل، ولو أن امرأة استغنت عن الزواج لغنى أبويّها، وشدة حاجتهما إليها، كنت أغنى الناس عنه؛ ولكن النساء للرجال خلقن، ولهن خلق الرجال.

أي بنية، إنك فارقت الجو الذي منه خرجت، وخلفت العش الذي فيه درجت، إلى وكر لم تعرفيه، وقرين لم تألفيه، فأصبح بملكه عليك رقيبًا ومليكًا؛ فكوني له أمة يكن لك عبدًا وشيكًا.

(١) ورد نص الوصية في: جمهرة خطب العرب، لأحمد زكي صفوت، ١٤٥/١ – ١٤٦، وجاءت الوصية في كتاب: " الوصايا والمواعظ الذهبية في الإسلام والجاهلية، لمجهول، ط. أولي ١٤١٨ه – ١٩٩٧م، الباب الثاني عشر، صـ ٤٦٧– ٤٦٨، وانظر: مجمع الأمثال، للنيسابوري (أبي الفضل أحمد بن محمد بن إبراهيم الميداني)، ت: محيي الدين عبد الحميد، ٢٦٢/٢

أيّ بنية: احملي عني عشر خصال تكن لك ذخرًا وذكرًا، الصحبة بالقناعة، والمعاشرة بحسن السمع والطاعة، والتعهد لموقع عينه، والتفقد لموضوع أنفه؛ فلا تقع عينه منك على قبيح، ولا يشم منك إلا أطيب ريح، والكحل أحسن الحسن الموجود، والماء أطيب الطيب المفقود، والتعهد لوقت طعامه، والهدوّ عند منامه؛ فإن حرارة الجوع ملهبة، وتنغيص النوم مغضبة، والاحتفاظ ببيته وماله، والإرعاء على نفسه وحشمه وعياله؛ وملاك الأمر في المال حسن التقدير، وفي العيال والحشم حسن التدبير. ولا تفشي له سرًا، ولا تعصي له أمرًا؛ فإنك إن أفشيت سره، لم تأمني غدره، وإن عصيت أمره، أوغرت صدره. ثم اتقي مع ذلك الفرح إن كان ترحًا، والاكتئاب عنده إن كان فرحًا؛ فإن الخصلة الأولى من التقصير، والثانية من التكدير. وكوني أشد ما تكونين له إعظامًا، يكن أشد ما يكون لك إكرامًا. وأشد ما تكونين له موافقة، يكن أطول ما تكونين له مرافقة. واعلمي أنك لا تصلين إلى ما تحبين، حتى تؤثري رضاه على رضاك، وهواه على هواك فيما أحببت وكرهت، والله يخير لك".

الفصل الأول: حجاجية الوجوه البلاغية في الوصية

المبحث الأول: الصور البيانية وآليات الحِجاج

خرجت الوصية من قلب صادق، ينصح بصدق، ويرشد بحق؛ لذا اعتمدت أمامة في وصيتها على الحقيقة أكثر من المجاز؛ ومالت إلى الإقناع العقلي في أغلب عبارات الوصية. وحين اعتمدت على الصور البيانية في متن الوصية كان ذلك لاستثمار ما فيها من قوة حجاجية، ولتمكن المعاني في قلب ابنتها، فجاءت بالاستعارة التصريحية في قولها:" **وخلفت العش الذي فيه درجت إلى وكر لم تعرفيه وقرين لم تألفيه** " حيث استعارت العش لبيت الأب واستعارت الوكر لبيت الزوج، فشبهت بيت أبيها بعش الطائر بجامع الدفء والحنان والاحتضان، فكأن الوالد طائر يحمي صغاره، ثم

عبرت عن بيت الزوج بالوكر والوكر [١] هو بيت الطائر في الحائط أو الشجر يبيض فيه. حيث جاء في لسان العرب بأن: الوَكْرُ عُشُّ الطَّائِرِ، وإِن لَمْ يَكُنْ فِيهِ، ومَوْضِعُ الطَّائِرِ الَّذِي يَبِيضُ فِيهِ ويُفَرِّخُ، وَهُوَ الخُرُوقُ فِي الْحِيطَانِ وَالشَّجَرِ، وَالْجَمْعُ الْقَلِيلُ أَوْكُرٌ وأَوكارٌ.

وجاءت بالعش مع بيت الأب لأن الفتاة تألف بيت الأب وتشعر فيه بالأمان، وترهب بيت الزوج وتجهل معالمه ولا تعلم ما يجري فيه، ولذلك قالت إلى وكر لم تعرفيه. إن قوة الحجاج في المفردات تبدو في الاستعمالات الاستعارية أقوى مما نحسه عند استخدامنا لنفس المفردة بالمعني الحقيقي. (٢)

فقد تعلو الاستعارة استعمال الألفاظ الحقيقية، وذلك لأنه لا يفضل المرسل استعمالها، إلا لثقته بأنها أبلغ من الحقيقة حجاجيًّا، وهذا ما يرجح تصنيفها ضمن أدوات السلم الحجاجي أيضًا، إذ تعرف الاستعارة الحجاجيَّة بكونها تلك الاستعارة التي تهدف إلى إحداث تغيير في الموقف الفكري أو العاطفي للمتلقي، وهو ما يود المرسل تحقيقه [٣]

ويري بيرلمان أن وظيفة البلاغة الأولي هي الإقناع وليس التأثير فقط، فهو لا يعتبر البلاغة مجرد صور فنية وجمالية وظيفتها الإمتاع فقط؛ بل يعتبرها حجاجية وإقناعية، ويجب أن تجلب الاستعارة في إطار الخطاب إلي استجلاب موافقة المستمع لهذه الصيغة الحجاجية، وإلا تصبح مجرد محسن بديعي. (٤)

(١) انظر: لسان العرب، لابن منظور، مادة (وكر)،٢٩٢/٥، وأساس البلاغة، للزمخشري ،٣٥٢/٢ مادة وكر

(٢) الحجاج مفهومه ومجالاته (دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة)، إعداد وتقديم: د. حافظ إسماعيل علوي، عالم الكتب الحديث – الأردن، ط. أولي ٢٠١٠م – ١٤٣١ه، صـ ١٣٧

(٣) استراتيجيات الخطاب، (مقاربة لغوية تداولية)، عبد الهادي بن ظافر الشهري، صـ ٤٩٤ – ٤٩٥.

(٤) نظريات الحجاج (قراءة في نظريات معاصرة)، د. جميل حمداوي، مجلة المنهاج، العدد٧٠، لعام ٢٠١٨م، صـ ٣١

ويعني هذا أن الخطاب دائمًا عملية تفاعلية وتواصلية وتداولية تحضر فيها أطراف ثلاثة هي المرسل والمستقبل والرسالة.

وتكمن فعالية الاستعارة في التناسب مع ما يقتضيه السياق؛ إذ تمثل الاستعارة أبلغ وأقوي الآليات اللغوية، رغم اكتناف السياق الكثير من العناصر، ويظهر التوجه العملي للاستعارة في ارتكازها على المستعار منه، إذ تكون الاستعارة بذلك أدعي من الحقيقة لتحريك همة المخاطب إلى الاقتناع؛ إذ يهدف إلى تغيير المقاييس التي يعتمدها المخاطب في تقويم الواقع والسلوك، وأنّ يتعرف على ذلك من المخاطب؛ ليكون سبب القبول والتسليم، وليس التخييل أو الصنعة اللفظية. (١)

ومن الاستعارات الحجاجية التي استثمرتها أمامة قولها في مطلع الوصية : " أي بنية ، احملي عني عشر خصال ، تكن لك ذخرًا وذكرًا " فشبهت فهم ابنتها لوصيتها واستيعابها لها وحرصها علي تطبيقها عمليًّا في حياتها بالحَمْل الثقيل الذي تتحمله النفس البشرية بمشقة وتعب ، فاستعارت الحمل للفهم والحفظ والوعي فجاءت بفعل الأمر " احملي بمعني افهمي واحفظي عنِّي، علي سبيل الاستعارة المكنية التبعية ، فمن المعاني الضمنية التي تلمح بها هذه الاستعارة " ثقل الوصية " فهي كنز ثمين يحتاج إلي قوة لحمله، ويتطلب نفسًا قوية للمحافظة عليه. فتعدية أمامة للفعل احملي بحرف الجر عني يلمح بانتقال الخصال من الأم لابنتها، فقد ورثوها جيلاً بعد جيل وربما تكون أمامة ورثتها عن أمها، وقد حددتها بعشر خصال مع أنها أكثر وذلك حتى تتمكن الفتاة من حفظها وتستطيع تحملها، دون أن تتأفف من ثقلها.

(١) استراتيجيات الخطاب، للشهري، صـ٤٩٦

ولأن الاستعارة جاءت في مطلع الوصية اعتمدت فيها أمامة على التكثيف الدلالي والإيجاز في العرض لتضمن إصغاء ابنتها وحضور ذهنها، وعدم شرودها فأمامة من حكيمات العرب المشهورات بالرأي السديد ورجاحة العقل.

ثم إن مجيء الاستعارة بصيغة الأمر؛ لأنَّ الأمر من الأفعال الإنجازية وإذا جاء بصيغته الأصلية (افعل) فإن الصيغة هنا تحتمل الوجوب، وصنفه كثير من المحدثين على أنه من الأفعال التوجيهية، التي يستعملها المرسل (المخاطِب) للإرشاد في خطاب التعليمات التي يعود النفع فيها على المرسل إليه (المخاطَب). (١)

ومن أمثلة الاستعارة أيضًا قول أمامة " **فإن حرارة الجوع ملهبة** " **(٢)** في سياق توصيها فيه بالتعهد لوقت طعام زوجها، وتعلل هذه الوصية بأن غريزة الجوع عند الرجل تشبه النار التي تحرق وتهلك، فكأنها تحذرها من التراخي والإهمال لشؤون زوجها.

فقد شبهت الجوع بالنار وحذفت المشبه به ودلّت عليه من لوازمه وهو الحرارة على سبيل الاستعارة المكنية. وقد جاءت الاستعارة مرشحة بكلمة " ملهبة " على وزن مفعلة من اللهب، واللهب يأتي مع النار المشتعلة فحرارة الجوع تذكي جذوة النار. فالجوع يشبه النار لذا يحتاج من الزوجة إلى التعهد وهكذا أحاطت أمامة بالحاجات الجسدية والنفسية للرجل حتى تضمن لابنتها حياة زوجية آمنة.

(١) انظر استراتيجيات الخطاب، للشهري، صـ ٣٤٣

(٢) انظر في تحليل الاستعارة، بلاغة التعبير عن القيم التربوية في وصية الأعرابية أمامة بنت الحارث لابنتها ليلة زفافها، د. تامر محمد أحمد حجازي، بحث منشور في مجلة كلية اللغة العربية بأسيوط- جامعة الأزهر ، العدد٣٨،الجزء ٤،لعام ٢٠١٩م صـ ٣٤٨٨

وبهذا تمثل الاستعارة مثالاً جوهريًّا لاستعمال اللغة؛ إذ يدرك منها معني مقصودًا يقع وراء البنيَّة المنجزة للملفوظ أو الجملة وبهذا تبدو الاستعارات مرشحات قوية للتحليل التداولي. (١)

واستعملت أمامة بنت الحارث الصورة التمثيلية في قولها: " **فكوني له أمة يكن لك عبدًا وشيكًا**" فشبهت حال ابنتها فيما ينبغي أن تكون عليه مع زوجها بحال الأمة مع سيدها من حيث الموادعة والطاعة والسمع، والنتيجة يكن لك عبدًا وشيكًا، فالجزاء من جنس العمل، فشبهت حال الزوج بحال العبد لا في الذلة والانكسار؛ وإنما حاله معها كحال العبد مع سيده في الموادعة وحسن السمع والطاعة والخوف عليه.

وهكذا يبقي التشبيه تلميحًا مهمًا، مالم يصرح المرسل بوجه الشبه بين طرفيه، فإذا صرح بوجه الشبه، فإنه ينتفي التلميح إلى التصريح، مما يحيل استراتيجية الخطاب إلي الاستراتيجية المباشرة. (٢)

فالتمثيل عقد صلة بين صورتين، ليتمكن المرسل من الاحتجاج وبيان حججه وقد عقد عبد القاهر الجرجاني فصلاً في " مواقع التمثيل وتأثيره لأنه مما اتفق العقلاءُ عليه، أن التمثيل إذا جاءَ في أعقاب المعاني، أو بَرَزَتْ هي باختصار في مَعرِضه، ونُقِلت عن صُوَرها الأصلية إلى صورته، كساها أُبَّهةً، ...، فإن كان مدحًا، كان أبْهَى وأفخم، ...،

وإن كان حِجابًا، كان بُرهانه أنور، وسلطانه أقهر، وبَيَانه أبْهر، ..." (٣)

ولأن الوصية اعتمدت على الإقناع العقلي قلَّ المجاز فيها، واعتمدت أمامة في أغلب عبارات الوصية على الحقيقة؛ لتغلق باب التردد والتأويل أمام ابنتها،

(١) استراتيجيات الخطاب، للشهري، صـ٤١١

(٢) المرجع نفسه، صـ ٤١٠

(١) أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني (أبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي)، محمود محمد شاكر، مطبعة المدني – القاهرة ومطبعة المدني بجدة، صـ١١٥

وما جاء من صور استعارية كان الغرض منه توضيح الفكرة لتستقر في ذهن الفتاة.

المبحث الثاني: القيم البديعية والحِجاج في الوصية.

مما تجدر الإشارة أن أصحاب البلاغة الجديدة في سعيهم إلى إعادة وظيفة الإقناع تزايد لديهم الاهتمام بالملتقي، وبالوسائل التي تجذبه تجاه الخطاب، فجمعوا في مقاربة الخطابات كل ما يمكن أن يشتمل عليه الخطاب من حجج إقناعية وجماليَّات تأثيرية.

لذا اعتبر الباحثون الوجوه البديعية ذات قيمة حجاجيَّة، إذا أحدثت تغييرًا في الرؤية، وكذلك إذا بدا استعمالها طبيعيًّا في المواقف المستعملة فيها؛ أما إذا لم يحقق النص المستعملة فيه إذعان المخاطب لهذا الشكل الحجاجي، فإن الصورة تعد من قبيل الزخرف، أي صورة أسلوبية. (١)

والسجع من أهم الظواهر الأسلوبية في النثر، وهو يعطي الكلام مكانة أقرب إلى الرجز والقصيد وإن كان دونهما، وينبغي أن يكون في بعض الكلام لا في جمعيه، فقد رفض البلاغيون اطراد السجع أو الجناس وغيرهما من المحسنات اللفظية لمَا ينم عنه ذلك من تكلف يعوق الوظيفة الإبلاغيَّة للخطاب.(٢)

وقد أكد عبد القاهر الجرجاني على شروط حسن البديع بعدم تكلفه حين قال: "وعلى الجملة فإنك لا تجد تجنيساً مقبولاً، ولا سَجَعاً حَسَنَاً، حتى يكون المعنى هو الذي طلبه واستدعاه وسَاق نحوَه، وحتى تَجِده لا تبتغي به بدَلاً، ولا تجِد عنه حِوَلاً، ومن ها هنا كان أَحْلَى تجنيس تسمَعُه وأعلاه، وأحقُّه بالحُسْن

(١) الحجاج مفهومه ومجالاته (دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة)، إعداد وتقديم، د. حافظ إسماعيلي علوي، صـ ١٤١

(٢) في بلاغة الخطاب الإقناعي، د. محمد العمري، صـ ١١٣

وأولاهُ، ما وقع من غير قصدٍ من المتكلم إلى اجتلابه، وتأهُّب لطلبه، أو مَا هو – لحسن مُلاءمته، وإن كان مطلوبًا– بهذه المنزلة وفي هذه الصورة، ..." (١)

ومن دراسة الجمل المكونة للوصية نلحظ ميل العبارات إلى الإيقاع الصوتي عن طريق اعتماد أسلوب السجع، والذي كان حاضرًا في أغلب فقرات الوصية، مما يوفر التأثير المرجو؛ لأنه يعمل على تحريك العاطفة. فالجمل في أدب الوصايا تميل إلى أن تكون جملاً قصيرة موجزة، وهو ما يؤهلها لأن تكون مقبولة أكثر لدي المتلقي لأن السامع يتمكن من متابعتها وتحصيل مطالبها بيسر وسهولة، فهي جمل اعتمدت على تركيز المعني، وتقليل المبني، وهي خصيصة قد امتدت في غالب فقرات أدب الوصايا (٢)

فمن العبارات المسجوعة في الوصية وقد اجتمع السجع مع الجناس في بعضها قول أمامة: " **إنك فارقت الجو الذي منه خرجت، وخلفت العش الذي فيه درجت** "

إلي وكر لم تعرفيه، وقرين لم تألفيه "

" **فأصبح بملكه عليك رقيبًا ومليكًا، فكوني له أمة يكن لك عبدًا وشيكًا** "

" **الصحبة بالقناعة وحسن السمع والطاعة** "

" **فلا تقع عينه منك على قبيح، ولا يشم منك إلا أطيب ريح** "

" **الاحتفاظ ببيته وماله، والارعاء على نفسه وحشمه وعياله** "

" **وملاك الأمر في المال حسن التقدير، وفي العيال والحشم حسن التدبير** "

" **وأشد ما تكونين له موافقة، يكن أطول ما تكونين له مرافقة** "

فقد أكسب السجع والجناس الوصية نغمًا موسيقيًا خلابًا تشيع من خلاله معاني الحب والاحترام والمسؤولية.

(١) أسرار البلاغة، صـ ١١

(٢) أدب الوصايا في نهج البلاغة قراءة في خصائص الأسلوب، د. مزاحم مطر حسين، مجلة القادسية للعلوم الإنسانية، المجلد الرابع عشر، العدد الرابع، لعام ٢٠١١م، ص ١٩٧

وقديمًا كانت كلماتهم متوازنة، وألفاظهم متناسبة، ومعانيهم ناصعة، وعباراتهم رائقة، وفصولهم متقابلة، وجمل كلامهم متماثلة.

فحين أرادت أمامة تنبيه ابنتها على قيمة الوصايا التي ذكرتها اهتمت بصياغتها بهذه الطريقة فجاءت العبارات مسجوعة والكلمات متجانسة، لجذب انتباه ابنتها فهي تحتاج إلى تحقيق الإقناع والإمتاع في ذات الوقت

فالسجع من أبرز آليات الحجاج التي استخدمتها أمامه في وصيتها لتحمل الفتاة علي التسليم والاقتناع فضلًا عن أن الوصايا ذات صبغة إقناعية ؛ غايتها التأثير في المتلقي واستمالة عقله للإذعان لمطالبها من خلال طرح الحجج والتأكيد عليها ، واللغة في الوصية منتقاة تعكس فكر المبدع ومزاجه وشعوره وطبعه وقدرته علي الانتقاء اللغوي ، ثم هي تبطن عدَدً كبيرًا من التقاليد الاجتماعية فهي ليست ألفاظًا وتراكيب ثابتة جامدة ، بمعانيها القاموسية وحدها ؛ بل إنها لغة انفعال مرنة ، متجددة بتجدد الانفعالات المرهونة بتجدد المواقف ، أي أن الجمل لم تتركب بمحض المصادفة ، فهناك أسباب وجيهة لتركيبها وفق كيفية بعينها ، وهذه الأسباب ترجع إلي الموضوع ، والأسلوب ، والسلوك الاجتماعي ، والتراث.(١)

إذن يجب أن يراعي المتكلم في خطابه الحجاجي أمرين هما: الهدف الذي يريد تحقيقه وهو إقناع المتلقي والتأثير فيه، والحجج التي يبني بها خطابه.

فقديمًا جعل ابن الأثير مدار البلاغة كلها على استدراج الخصم إلى الإذعان والتسليم؛ ورأي أنه لا انتفاع بإيراد الألفاظ المليحة الرائقة ولا المعاني اللطيفة الدقيقة دون أن تكون مستجلبة لبلوغ غرض المخاطب بها. (٢)

(١) آليات الحجاج اللغوي وشبه المنطقي لوصايا الحكماء في العصر الجاهلي، مقاربة تداولية، للباحث: علاء الدين أحمد الغرايبة، صـ ٦٣

(٢) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، لابن الأثير (ضياء الدين نصر الله بن محمد) ت: أحمد الحوفي وبدوي طبانة، دار نهضة مصر – القاهرة، د.ت، ٢٠٥/٢

ولما أردات أمامة بنت الحارث توضيح أسباب السعادة والشقاء لابنتها وعوامل النجاح في الحياة الزوجيّة وعوامل الفشل، فالطباق والمقابلة من الفنون التي تساعدها على عقد مقارنة ومن ثَمَّ الاختيار، "فعلي الرغم من أن الإيقاع في الأساس بنية صوتيّة فإننا نستطيع أن نعُدَّ بنية التقابل باعتبارها أحد عناصر الإيقاع المعنوي وسيلة من الوسائل الثرية بأثريها الدلالي والإيقاعي"(١).

وإذا كانت بنية التقابل تعمل على مستوي تحقيق الناتج الدلالي، وهو المستهدف الأول، فإنها تعمل –في الوقت نفسه– على خلق روح من التلاؤم يتيح لإيقاع النص الذي ترد فيه أن يتأكد بتناسق حركة المعني وانتظامها، وهنا يبدو جليًّا الأثر الدلالي والإيقاعي. (٢)

فمن مواطن التضاد التي استخدمتها أمامة في الوصية ما جاء في قولها: **"ثم اتقي مع ذلك الفرح إن كان ترحًا"**

فاستخدمت الترح (٣) وهو الحزن الشديد نقيض الفرح، وأرادت أن تؤكد على أن الفرح هو الغالب والترح طارئ على الحياة الزوجية فاستخدمت "إنْ" مع الترح وهي للتقليل. وكأن أمامة تهمس في أذن ابنتها وتقول لا ينبغي للحزن أن يعرف لزوجك طريقا. وزيادة في الإقناع العقلي عللت أمامة للطلب بقولها: "**فإن الخصلة الأولي من التقصير**" والخصلة الأولي هي الفرح أمام زوجها إن كان ترحا؛ وأكدت الجملة بإن لتتحاشي الفتاة الوقوع في خطأ التقصير في حق زوجها.

(١) البلاغة العربية (البيان والبديع)، د. عزة محمد جدوع، مكتبة الرشد– الدمام ١٤٣٥هـ–٢٠١٤م، ط. أولي، صـ٢٧٧.

(٢) المرجع السابق، صـ٢٦٦.

(٣) جاء في لسان العرب "ترح: التَّرَحُ: نَقِيضُ الْفَرَحِ. وَقَدْ تَرِحَ تَرَحًا وتَتَرّح وتَرّحَه الأَمرُ تَتْريحًا أَي أَحْزَنه... وَهُوَ الْهَلَاكُ وَالِانْقِطَاعُ ... والتَّرَحُ: الفقرُ" انظر: لسان العرب، لابن منظور، ٤١٧/٢ مادة (ترح).

ثم جاءت المقابلة في الجملة "**والاكتئاب عنده إن كان فرحا**" وهي في مقابلة الجملة السابقة وهي عكس معناها، إذ تحذرها هنا من الاكتئاب والكآبة عند زوجها إن كان فرحا. وجعلت الخصلة الثانية من التكدير؛ لأنها حين تكتئب وزوجها فرح تكدر عليه صفو الحياة. فقابلت الفرح بالاكتئاب والترح بالفرح، والخصلة الأولي بالخصلة الثانية (١)

وتبدو القيمة التربوية هنا في حرص أمامة على تحقيق الانسجام العاطفي بين ابنتها وزوجها، والمشاركة الوجدانية فرحًا وترحًا، وهذه المشاركة تشعر الرجل بأنه ليس وحيدًا، وأن معه من يحزن بحزنه ويفرح بفرحه. (٢)

ومن مواطن الطباق ما جاء في قول أمامة في خاتمة الوصية: "**واعلمي أنك لا تصلين إلى ما تحبين حتى تؤثري رضاه على رضاك، وهواه على هواك، فيما أحببت وكرهتِ**".

والطباق بين الفعلين (أحببتِ وكرهتِ) يبين أن المرأة تقدم رضا زوجها على رضاها وهواه على هواها، ولا علاقة لذلك الإيثار بحبها لما تفعله أو بكرهها له، فالمرأة لا بد أن تتجرد من أهوائها الشخصية حتى ترضي زوجها.

مما سبق يتبين إدراك أمامة بنت الحارث قوة استعمال الوجوه البديعية كالطباق والمقابلة والجناس والسجع في إقناع الفتاة، فبيان الشيء وضده يجعل الفتاة تقارن بين أسباب السعادة والشقاء بعقلها، ثم تختار.

المبحث الثالث: الانتقاء اللغوي والحجاج في الوصية

الوصف بالصيغ المختلفة:

عَدّ الباحثون (١) الوصف بصيغ العربية المعهودة كاسم الفاعل واسم المفعول وصيغ المبالغة واسم التفضيل من وسائل الحجاج التي استخدمها

(١) انظر في تحليل الشاهد: بلاغة التعبير عن القيم التربوية في وصية الأعرابية أمامة بنت الحارث، صـ٣٥٠١.

(٢) المرجع السابق، صـ٣٥٠١.

أصحاب خطابات الوصايا لإيقاع التأثير في المتلقي؛ ذلك أنها تقوم على أساس توضيح الفكرة وتعميق المعني في نفس المتلقي، فتغدو الفكرة بالوصف أكثر تأثيرًا وإقناعًا.

فصيغ المبالغة آلية لغوية من آليات الحِجاج يلجأ إليها المرسل لإقناع المتلقي والتأثير فيه؛ لما فيها من دلالة علي تكرار الفعل والمبالغة في وقوعه.

فعندما تقول أمامة: "**فأصبح بملكه عليك رقيبًا ومليكًا، فكوني له أمة يكن لك عبدًا وشيكا**" فبمجرد أن أصبح زوجها مليكًا عليها ورقيبا، أي مراقبًا لأعمالها وحركاتها، فوراء هذا الوصف إيحاء لابنتها بأن تراعي تلك الرقابة التي ستكون عليها، ومن ثم تصون نفسها عن الزلل، وصار عليها مليكًا وهي صيغة مبالغة من الملك فهو ملك احتواء وقوامة وليس ملك استرقاق.

ثم جاءت صيغة المبالغة في قول الأم " **فكوني له أمة يكن لك عبدًا وشيكا**" والوشيك: سريع الإجابة والقريب، إنه لن يكون كالعبد في الذلة والانكسار، وإنما حاله معها كحال العبد مع سيده في حسن السمع والطاعة والخوف عليه، وسرعة الإجابة والقرب.

صيغة المبالغة فَعِل:

ومن العبارات التي استثمرت فيها أمامة صيغ المبالغة قولها لابنتها: "**ثم اتقي مع ذلك الفرح إن كان ترحًا، والاكتئاب عنده إن كان فرحًا؛ فإن الخصلة الأولي من التقصير، والثانيّة من التكدير**"

استخدمت صيغ المبالغة عند حديثها عن المشاعر الإنسانيّة وضرورة مراعاة تلك المشاعر من كلا الزوجين فرحًا وترحًا، ولخطورة هذا الجانب

(١) انظر: آليات الحجاج اللغوي وشبه المنطقي لوصايا الحكماء في العصر الجاهلي، صـ٦٩.

استخدمت الإنشاء الطلبي بصيغة الأمر بغرض النصح والإرشاد، لأن الوصية هنا تعلقت بغضب الزوج ورضاه.

والترح نقيض الفرح وقد جاء على صيغة المبالغة "ترح" "فَعِل" بكسر العين، للإشارة إلي شدة حزنه وهو ما يؤكد خطأ الزوجة حين تظهر الفرح وزوجها بتلك الحال.

فعدم مراعاة مشاعر الزوج وعدم التوافق والانسجام من التقصير فعليها ألا تظهر أي مظهر من مظاهر الفرح إن كان زوجها ترحًا، كما حذرتها من الاكتئاب عند زوجها إن كان فرحا، وصيغة المبالغة "فرحًا" تشير إلى المبالغة في سعادته وفرحه.

ومن هنا حرصت الأم على تحقيق الانسجام العاطفي بين الزوجين، والمشاركة الوجدانيّة فرحًا وترحًا.

ومن صيغ المبالغة التي استخدمتها أمامة في الوصية ودلت علي قدرتها علي الانتقاء اللغوي للكلمات حين قالت "**والتعهد لوقت طعامه، والهدو عند منامه، فإن حرارة الجوع ملهبة، وتنغيص النوم مغضبة**" والتعهد من التفعل لفظ يدل علي الحرص والاهتمام بمواعيد الطعام؛ لأن حرارة الجوع تشبه النار، والنوم يحتاج للهدوء ورُوي الهدوّ بإسقاط الهمزة والتعويض عنها بالواو، للمبالغة في شدة الهدوء والسكون؛ لأن تنغيص النوم مغضبة –مفعلة– من الغضب والصيغة تشير إلي المبالغة في شدة غضبه حين ينغص نومه، والمبغضة رواية أخري وهي من الكراهية وإثارة الحفيظة، وفيها دلالة علي تكرارا الحدث. والتنغيص مصدر جاء على وزن تفعيل يوحي بدلالته على شدة التعكير لمزاج الزوج بسبب تنغيص نومه.

ومن نماذج المبالغة أيضًا قول الأم: "**والتعهد لموقع عينه، والتفقد لموقع أنفه، فلا تقع عينه منك على قبيح، ولا يشم منك إلا أطيب ريح**"

في هذه الوصية لم تأتِ الأم بالطلب المباشر، وإنما جاءت بالأسلوب الخبري لفظًا والإنشائي في المعني لاجتناب الأمر صراحة، وحتى لا تشعر الفتاة بالثقل والمعاناة، فجاءت أمامة بصيغة المبالغة في لفظتي "التعهد والتفقد"(١) لأنها كلمات دلت على المثابرة

والتكرار والحرص التام على متابعة هاتين الموضعين، لأن التعهد يقتضي التردد والإصلاح والتفقد يعني المراقبة عن قرب وفيه معني التدقيق والفحص وتتبع أحوال الشخص.

ولأهمية هذه الوصية المرتبطة بالنظافة أتبعتها بالنهي بغرض التحذير والنصح والإرشاد فقد يجمع المرسل بين أكثر من أسلوب في سياق واحد للتوجيه، إذ يعضد أحدهما الآخر ويفسره ويحدده، وهو ما يعرف "بالتوجيه المركب" لذلك تأتي فاعلية الخطاب الحجاجي من طريقة بنائه وتفاعل عناصره وديناميةمكوناته. فقد جاءت صيغة النهي متعاضدة مع صيغ المبالغة وأسلوب القصر في قولها: " **فلا تقع عينه منك على قبيح، ولا يشم منك إلا أطيب ريح**" فجاءت صيغة المبالغة "قبيح" وحذفت الموصوف للدلالة على العموم والشمول "أي قبيح" سواء أكان القبح في المظهر أم في المخبر، في الكلام أو في الأفعال. فالرائحة الطيبة هي مصدر السعادة لذا جاء الأسلوب مؤكدًا بالنفي والاستثناء في الجملة الثانية.

الوصف بأفعل التفضيل:

تدل أفعل التفضيل على المفاضلة بين شيئين اشتركا في معني واحد وزاد أحدهما على الآخر في هذا المعني [٢]

(١) انظر لسان العرب مادة "عهد"، ٣١١/٣، مادة فقد،٣٣٧/٣، وفي القاموس المحيط، للفيروز آبادي (مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب) أنَّ " العَهْدُ: الوَصِيَّةُ... والحِفاظُ، ورِعايةُ الحُرْمَةِ، والأَمانُ، والذِّمَّةُ... وتَعَهَّدَه وتَعَاهَدَه واعْتَهَدَه: تَفَقَّدَه"، ت: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة –بيروت، الطبعة: الثامنة، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م، صـ ٣٠٣

(٢) شرح قطر الندي وبل الصدى، لابن هشام (جمال الدين عبد الله بن يوسف بن أحمد)، ت: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط. القاهرة ١٣٨٣هـ، ط١١، صـ٢٨٠

ومن نماذج استعمال أفعل التفضيل في الوصية قول أمامة بنت الحارث: " فلا يشم منك إلا أطيب ريح" وهي ترشدنا إلى ما يجعلها قريبة من زوجها، فأوصتها بضرورة أن تكون نظيفة في مظهرها ومخبرها ورائحتها طيبة وجاء أفعل التفضيل مشتقًا من الطيب " إلا أطيب ريح" مضافًا إلى الريح، ليدل على أنها ينبغي لها أن تنبثق منها أطيب الروائح، وهو مشتق من الطيب، والطيب رائحته جذابة مريحة للنفس والقلب جالبة للسعادة. (١)

كما جاءت الصيغة موظفة في موطن آخر حين قالت: "**والكحل أحسن الحسن الموجود، والماء أطيب الطيب المفقود**" في هذه العبارات تدل الأم ابنتها على أسباب الجمال، والرائحة الطيبة، فلا يختلف أحد على أن الكحل أحسن الحسن ولا مشقة فيه بدليل قولها "الموجود" أي المتاح، واستخدمت أفعل التفضيل فجعلته أحسن الحسن، فالحسن له مظاهر كثيرة أقواها وأحسنها أثر الكحل.

فلا شك في أن ابنتها وهي زوجة ملك متاح له أفخم أنواع الطيب، إلا أن الأم لا تريد أن تشق على ابنتها، فجعلت الماء أطيب الطيب، واصطبغت وصيتها بالطابع الإنساني العام، كأنها تخاطب كل فتاة.

ومن النماذج التي استثمرت فيها أمامة صيغة التفضيل فدل ذلك علي دقة الانتقاء للكلمات، والدقة في بناء الخطاب قولها: "**وكوني أشد ما تكونين له إعظامًا، يكن أشد ما يكون لك إكرامًا. وأشد ما تكونين له موافقة يكن أطول ما تكونين له مرافقة**"

فجاء فعل الكون بعدها بصيغة التفضيل "أشد" لبيان درجة إعظامها لزوجها فصيغة التفضيل أفادت المبالغة في تقدير الزوج وإكرامه والجزاء من جنس العمل فقد ترتب على إعظامها لزوجها إكرامه لها أشد الكرم.

(١) بلاغة التعبير عن القيم التربوية في وصية الأعرابية أمامة بنت الحارث لابنتها ليلة زفافها، صـ ٣٤٨٥.

فجاءت صيغة التفضيل في قولها: " وأشد ما تكونين له موافقة يكن أطول ما تكونين له مرافقة" فتبين الصيغة ضرورة أن تكون الزوجة في أغلب أحوالها موافقة لزوجها، لتكون النتيجة الطبيعية بأن يكون " أطول ما تكونين له مرافقة" فجاءت بأفعل التفضيل في كلمة أطول فموافقتها لزوجها سبب في طول مكثها معه، فالمرافقة الطويلة تأتي من الموافقة الشديدة.

الفصل الثاني: الروابط الحجاجية في الوصية والتماسك النصي

تسهم الروابط الحجاجية في تماسك النص، ومن ثَمَّ تحقيق غايته الحجاجيّة من التأثير والإقناع، وتقديم الدليل علي صدق دعوي المتكلم، ووضوح الخطاب اللفظي لدي المخاطب، ويقصد بالروابط الحجاجيّة "الوحدات اللغوية أو المورفيمات التي تقيم علاقة بين جملتين، وقد يتعلق الأمر بالظروف مثل:(مع ذلك، رغم، أو بالعطف مثل الفاء والواو، أو بالصلة مثل: لأن، بما أن)، فهذه الأدوات تؤدي دورًا مهمًا من حيث هي تضفي الاتساق على النص" (١)

وهي المؤشر الأساسي البارز، والدليل القاطع على أن الحجاج مؤشر له بنيّة اللغة، والروابط كثيرة في اللغة منها: بل، ولكن، وإذن، ولا سيما، وحتى، ولأن، وبما، وإذا، والواو والفاء، واللام، وكي، وقد أشار عز الدين الناجِح إلى أن الرابط يربط بين قضيتين بسيطتين، لتصبحا قضية كبري أو تربط بين ملفوظين بغية الوصول إلى نتيجة محددة. وهذه الروابط لا يمكن تعريفها إلا بالإحالة على قيمتها الحجاجيّة. (٢)

الطابع الحواري في الوصية والربط بـ "أداة النداء"

الطابع الحواري هو ما يسم الخطاب بطبيعة بلاغية تواصلية تتصف بالقصدية، فالوصية كلام موجه من مرسل "أمامة" إلى مخاطب "أم إياس" وفي

(١) المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، دومينيك مانغونو، ترجمة: محمد يحياتن، صـ٢٦.

(٢) العوامل الحجاجية في اللغة العربية، د. عزالدين الناجح، مكتبة علاء الدين صفاقس –تونس، ط. أولي ٢٠١١م، صـ٢٣، وانظر: اللغة والحجاج، لأبي بكر العزاوي، صـ٥٥

ظل عرض الأم لخبراتها وآرائها يتحول المخاطب من كونه مخاطبا سلبيًّا إلى أن يصبح مشاركًا مهمًا لا يمكن الاستغناء عنه، في عملية التواصل، وقد اهتمت البلاغة الجديدة بالمتلقي بوصفه أساسًا من الأسس التي يتحقق بها الجانب الإقناعي للبلاغة.

فعلي مستوي الوصية كانت أمامة بنت الحارث تستحضر وعي المخاطب (ابنتها) باستخدام أداة النداء "أي بنيّة" وهي أداة تستخدم للدلالة على قرب المنادي [١]، ويعد النداء توجيهًا؛ لأنه يحفز المخاطب لردة فعل تجاه المرسل، فالنداء يستدعي إقبال الأذهان والاهتمام بالوصايا التي ستلقي؛ لذا النداء من آليات التوجيه، لأنه يهيئ السامع [٢]

كانت أمامة قريبة من ابنتها حسًا ومعني، مكانًا وزمانًا، وتصغيرها للمنادي يوحي بحنو الأم على ابنتها وفيه إشارة إلى عفويتها، وتكرر النداء وتكررت أداته؛ لحرص الأم على أن تأخذ ابنتها بجميع وصاياها مأخذ الجد، وتجعل تلك الوصايا منهجًا للسعادة الزوجية. وهكذا كان التواصل الجيد بين الأم وفتاتها.

والتحاور الهادف فلم تصدر وصاياها من نفس متعالية تجعل بينها وبين الطرف الآخر حاجزًا من الاستبداد بالرأي.

روابط التعليل الطلبي (بصيغتي الأمر والنهي):

تشكل الآليات اللغوية وظيفة دلاليّة تتفاعل فيما بينها لبناء الخطاب الحجاجي وتمكينه في نفس المتلقي من خلال روابط حجاجية تساعد في خلق القوة الإقناعية والروابط اللغويّة كروابط التعليل لا تدل على وظائف معجميّة،

(١) تتمثل الوظيفة الرئيسية للنداء في تنبيه المخاطب للإصغاء، وإعداد النفس لتلقي الخطاب انظر: علم المعاني (دراسة في الانزياح الأسلوبي)، د. عزة محمد جدوع، مكتبة المتنبي- الدمام، ط. ثانية ١٤٣٨هـ-٢٠١٧م، صـ١٣٢.

(٢) استراتيجيات الخطاب، (مقاربة لغوية تداولية)، للشهري، صـ٣٦٠.

ولكنها تدل على معانٍ وظيفية، وهذه الأدوار يختارها المبدع بعناية فائقة، لتحقيق الغاية من الخطاب.

ويعد التعليل من الوسائل الحجاجية التي تقدم دورًا وظيفيًا في نجاح خطاب الوصايا بوجه خاص، إذ إن التعليل يتجاوز وظيفته اللغوية ليصير وسيلة منطقية في تسويغ الأحكام، وآلية عقلية في ترسيخ المضامين التي تعمل على إزالة الغموض الذي يكتنف تصور المتلقي

وقد جاءت صيغ الطلب في الوصية وكان أبرزها الأمر والنهي، ولم تكتفِ أمامة بذكر الأفعال التوجيهية؛ بل تتبعها بالتعليل حرصًا منها على إقناع المتلقي ومن نماذج ذلك في الوصية قولها:

"فكوني له أمة يكن لك عبدًا وشيكا"

"احملي عني عشر خصال، تكن لك ذخرًا وذكرا"

"ثم اتقي مع ذلك الفرح إن كان ترحًا، والاكتئاب عِنده إن كان فرحًا، فإن الخصلة الأولي من التقصير، والثانية من التكدير"

"وكوني أشد ما تكونين له موافقة، يكن أطول ما تكونين له مرافقة"

"واعلمي إنك لا تصلين إلى ما تحبين حتى تؤثري رضاه على رضاك، وهواه على هواك"

"فلا تقع عينه على قبيح، ولا يشم منك إلا أطيب ريح"

"ولا تفشي له سرًا ولا تعصي له أمرًا، فإنك إن أفشيت سره لم تأمني غدره، وإن عصيت أمره أوغرت صدره"

ففي العبارة الأولي تعلل أمامة للأمر في قولها: "**فكوني له أمة**" أي كوني معه أكثر طواعية، والتعليل والنتيجة هي "**يكن لك عبدًا وشيكًا**" فالجزاء من جنس العمل.

وفي العبارة الثانية "احملي عني عشر خصال" والتعليل "تكن لك ذخرًا وذكرًا"

ونلحظ الدقة في الانتقاء اللغوي للكلمات، فكلمة "احملي" صيغة أمر تستوجب القيام بالفعل؛ لأن الأصل في الأمر أن يكون به الطلب على سبيل الوجوب والإلزام، وفي سياق النصيحة قد يخرج الأمر إلى معاني النصح والإرشاد والتوجيه والتأديب وقد اختارت أمامة كلمة "احملي" دون غيرها فلم تقل احفظي أو افهمي، لأنها كلمة تحمل دلالات خاصة منها عظم الوصية وأنها متوارثة جيل بعد جيل، وأنها تشبه الكنز الثمين متي ما حافظت عليه فتاتها كان لها عونًا عند الحاجة وذكرًا طيبًا في حياتها وبعد مماتها.

وفي العبارة الثالثة: حين تتعلق الوصية بغضب الزوج يأتي فعل الأمر "اتقي الفرح إن كان ترحًا، والاكتئاب إن كان فرحًا" والتعليل "فإن الخصلة الأولي من التقصير، والثانية من التكدير" وصيغة الفعل "اتقي" يحمل دلالة التحذير.

وفي العبارة الرابعة تأتي صيغة الأمر بفعل "الكون" مرة أخري في ختام الوصية حين تقول "**وكوني أشد ما تكونين له إعظامًا**" والتعليل والنتيجة هي "يكن أشد ما يكون لك إكرامًا" فالجزاء من جنس العمل، ونلحظ ظاهرة الانتقاء اللغوي في اختيار أمامة للمفردات اللغوية فالإعظام يتناسب مع الرجل، والإكرام يتناسب مع المرأة.

ثم تأتي أمامة في العبارة الخامسة في ختام الوصية فتقول: "واعلمي أنك لا تصلين إلى ما تحبين حتى تؤثري رضاه على رضاك وهواه على هواك" ولأهمية هذه الوصية جاءت أمامة بفعل الأمر "اعلمي" فعادة العرب إذا أرادت أن تتحدث عن أمر ذي بال أن تبدأه بهذا الفعل؛ حتى يضعه المخاطب في مركز العلم وبؤرة التركيز [١]

وفي هذه الوصية اتبعت أمامة صيغة الأمر بجملة مؤكدة "أنك لا تصلين إلى ما تحبين" علقت فيها حصول فتاتها على ما تحبه بإيثار ما يحبه

(١) بلاغة التعبير عن القيم التربوية في وصية الأعرابية أمامة بنت الحارث لابنتها، صـ ٣٥٠٥.

الزوج فجاءت بـ "حتى" الغائبة في قولها "حتى تؤثري رضاه على رضاك، وهواه على هواك فيما أحببت وكرهت". وفي هذا الإيثار عليها أن تتجرد من أهوائها الشخصية.

وفي الوصية السادسة جاءت أمامة بصيغة النهي في قولها: "**فلا تقع عينه منك على قبيح ولا يشم منك إلا أطيب ريح**" والصيغة هنا غرضها النصح والإرشاد، لأن الأم نهت ابنتها عن جميع أنواع القبح المادي والمعنوي فجاءت بكلمة قبيح نكرة فدلت النكرة على العموم والشمول فالنهي هنا يشمل كل قبيح سواء أكان في القول أو الفعل في المظهر أو المخبر.

أما في العبارة السابعة والتي جاءت فيها أمامة بصيغة النهي [1] في قولها: "**ولا تفشي له سرًا**" وعللت ذلك بقولها: "**فإنك إن أفشيت سره لم تأمني غدره**".

وفي هذا النهي ترشد الأم ابنتها إلى ما يجلب ثقة زوجها، وقد جاءت الجملة التعليلية مؤكدة بـ "إن" لزيادة الإقناع العقلي.

ثم جاءت صيغة النهي في قولها: "ولا تعصي له أمرًا" وعللت للنهي بقولها: "**وإن عصيت أمره أوغرتِ صدره**" أي أحميته من الغيظ.

وإذا عدنا إلى ظاهرة الانتقاء اللغوي نجد أمامة قد جاءت بكلمة سرًا نكرة، وكلمة أمرًا نكرة، للعموم والشمول، والمبالغة في طاعة الزوج والاحتفاظ بسره.

ولأن طاعة الزوج مفتاح السعادة الزوجية أكدت أمامة على هذه الوصية في مطلعها وخاتمتها. ونوعت في الأسلوب بين الإنشاء في قولها: "**ولا تعصي له**

(١) يعرفه علماء المعاني بأنه "طلب الكف عن الفعل، أو الامتناع عنه، على سبيل الاستعلاء والإلزام، فهو مقابل الأمر" انظر: المعاني (دراسة في الانزياح الأسلوبي)، د. عزة محمد جدوع، صـ٩٤.

أمرًا" وبين الخبر الذي يحمل معني الإنشاء في مطلع الوصية في قولها: " **والمعاشرة بحسن السمع والطاعة**" وذلك لاجتناب إلقاء الوصية بصيغة الأمر الصريح المباشر لثقله.

مما سبق يتبين أن أمامة قد استثمرت صيغتي الأمر والنهي في مقام النصح والإرشاد، ولكنها أكثرت من استخدامهما بمعناهما الحقيقي الذي يوحي بالإلزام والوجوب. كذلك لم تكتف الأم بتوجيه الأمر والنهي في عبارات الوصية، بل اتبعتها بالتعليل بغرض الإقناع العقلي، وهو ما يدل على سعة علم الأم بحقائق الأمور وبواعثها، ومن جانب آخر يمثل دافعًا قويًا للتمسك بذلك الأمر أو الامتناع عن ذلك المنهي عنه، لأن علته قد اتضحت لدي المتلقي.

والغرض أيضًا من التعليل للطلب أن الأم أرادت أن تطبع وصيتها بالطابع الإنساني العام، فكأنها تخاطب عقل كل فتاة، فجعلت وصيتها وثيقة عامة يمكن أن تلجأ إليها كل فتاة فتجعلها منهج حياة. اختارت أمامة من بين صيغ الأمر صيغة الفعل دون غيرها من الصيغ الدالة علي الأمر(١) لأنها صيغة تستلزم الوجوب وهي من الصيغ اللغوية المستخدمة في الاستراتيجية التوجيهية(٢)، كما أن صيغة النهي تستلزم أيضًا الوجوب؛ لأنها صيغ صدرت من مرتبة أعلي، وهذه الأفعال سماها "أوستن" بالأقوال الإنجازية، فالتصور التداولي للغة عند فلاسفة اللغة من أمثال أوستن وسورل وغرايس، يرفض أن تكون اللغة مجرد تمثيل للواقع، إنها تمكن من إنجاز أفعال من نمط معين: الأمر والوعد والنهي

(١) من صيغ الأمر: فعل الأمر، والمضارع المقرون بلام الأمر، واسم فعل الأمر، والمصدر النائب عن فعل الأمر. انظر: بلوغ الأماني في علم المعاني، د. منال محمد بسيوني، مكتبة المتنبي- الدمام، ط. أولي ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م، صـ٩٧-٩٨.

(٢) استراتيجيات الخطاب (مقاربة لغوية تداولية)، للشهري، صـ٣٤٠ – ٣٤٩.

والاستفهام والنصح والشكر، .....، وغيرها من الأفعال الكلامية. ولا يمكن أن تكون للغة وظيفة واحدة هي نقل المعلومات (١)

التوكيد:

يتم استعمال التوكيد عند إنتاج الخطاب الخبري في ثلاث درجات من التوكيد ، وفقًا لحال المخاطب للسياق ، يقول السيوطي في باب الإسناد الخبري :" ينبغي للمتكلم أن يقتصر من التركيب علي قدر الحاجة ، فإن ألقي الخطاب إلي خالي الذهن من الحكم ومن التردد فيه استغني عن مؤكدات الحكم ، كقولك : زيد قائم ، لمن هو خالي الذهن ، وإن كان مترددًا في الخبر ، طالبًا له حَسُنَ أن يقوي بمؤكد واحد ، كقولك : لزيد قائم ، أو إنه قائم ، وإن كان منكرًا ، وجب تأكيده بحسب الإنكار، أي بقدره قوة وضعفًا حتي يزيد في التأكيد بحسب الزيادة في الإنكار ، .... ، ويُسمي الضرب الأول ابتدائيًا، والثاني طلبيًا، والثالث إنكاريًا".(٢)

وقد جاءت أمامة بعبارات مؤكدة نزلت فيها المخاطب منزلة المتردد الشاك، في حين أن " أم إياس " كانت مخاطب خالي الذهن فحقها أن يُلقي إليها الخبر ابتدائيًا خاليًا من التأكيد، وهي سامعة لأمها مطيعة؛ ولكن الخبر جاء مؤكدًا كما في قولها في مطلع الوصية:" **إن الوصية لو تركت لفضل أدب، تركت لذلك منك**" والغرض من التوكيد هنا أن أمامة أرادت أن تدفع التوهم عند الفتاة

(١) اللغة والحجاج، لأبي بكر العزاوي، صـ ١١٦- ١١٧.

(٢) شرح عقود الجمان في علم المعاني والبيان، للحافظ: جلال الدين السيوطي، دار الفكر – بيروت، صـ ١٠- ١١، وانظر أضرب الخبر من حيث حالات المخاطب كتاب: علم المعاني، د. عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية – بيروت، ط. أولي، ٥٢-٥٣، وانظر: علم المعاني (دراسة في الانزياح الدلالي)، د. عزة محمد جدوع، ٧٣- ٧٤

من أن تكون أمها حريصة على وصيتها شكًا منها في أخلاقها أو أدبها فأزالت بالتأكيد هذا الوهم وجعلتها مفعمة بالثقة في نفسها وأدبها. (١)

وجاء الخبر مؤكدًا في قولها: "**إنك فارقت الجو الذي منه خرجت، وخلفت العش الذي فيه درجت، إلى وكر لم تعرفيه، ....** " ويرجع هذا التأكيد إلى كون الفتاة مترددة متعلقة ببيت أبيها وخوفها من القدوم علي بيت جديد غامض المعالم؛ هو ما جعل الأم تختار لفظ الفراق لبيان أنه فراق بلا عودة." إن أمامة أصدرت قرار الفراق مؤكدًا لتغلق أبواب التردد والمماطلة ووساوس الشيطان أمام ابنتها، ولتؤهلها نفسيًا لتقبل أن تكون الحياة القادمة هي حياتها الأبدية." (٢)

وقد سبق من قبل ذكر الجمل التعليلية التي عللت فيها أمامة لأفعال الطلب، وقد جاءت هذه الجمل مؤكدة بـ " إنَّ " وذلك للإقناع العقلي، فمن الجمل المؤكدة بـ إن قولها: " **فإن الاحتفاظ بالمال حسن التقدير** " فأساس الإبقاء على المال حسن الاقتصاد في النفقة، فالمال عصب الحياة والحفاظ عليه حفاظ علي ما سواه، والبيت والمال بهما قوام الأسرة.

فعلي ضوء مراعاة مقتضي الحال صنفت البلاغة العربية المخاطبين إلى ثلاثة أصناف: مخاطب خالي الذهن، ومخاطب شاك ومتردد، ومخاطب جاحد ومنكر. وتتصاعد درجة تأكيد الخطاب حسب هذا الترتيب، وقد يوضع كل واحد منهم مكان الآخر حسب الملابسات التي يحددها المقام. (٣)

- **من روابط التعليل (فاء السببية)**

تأتي الفاء لمعانٍ ثلاثة هي العطف، والترتيب، والسببية، وقد تقترن بـ" إن" التعليلية، وقد وظفتها أمامة في خطاب الوصية حين قالت معللة:

(١) بلاغة التعبير عن القيم التربوية في وصية الأعرابية أمامة بنت الحارث لابنتها، صـ ٣٤٦٨

(٢) المرجع نفسه، صـ ٣٤٧٤

(٣) في بلاغة الخطاب الإقناعي (مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية)، الخطابة في القرن الأول نموذجًا، د. محمد العمري، صـ ٣٥

" **فإن حرارة الجوع ملهبة** "

وفي قولها: " **فإنّك إن أفشيت سره لم تأمني غدره** "

وفي قولها: " **فإنّ الخصلة الأولي من التقصير، والثانية من التكدير**"

وفي قولها: " **فإنّ تنغيص النوم مغضبة** "

وفي قولها: " **فإن الاحتفاظ بالمال حسن التقدير** "

وهكذا ربطت الفاء بين النتيجة والحجة فما بعدها كان تعليلاً لما قبلها.

- **من أدوات الربط العطف بـ " ثم "**

العطف بثم يفيد الترتيب الرتبي واختيار أمامة للأداة "ثم" في قولها: " **ثم اتقي مع ذلك الفرح إن كان ترحًا، والاكتئاب عنده إن كان فرحًا** " فكأنها أرادتِ أن تقول لابنتها إذا فعلت كل ما سبق من وصايا وجب عليك أن تتقي .... إلخ فحقيقة "ثم" هنا دالة على التراخي والمهلة في العطف بين المعطوف والمعطوف عليه. وقد جاءت أمامة بحرف المعية " **ثم اتقي "مع" ذلك** " واسم الإشارة هنا يعود على ما سبق من وصايا والبعد هنا بُعد مكانة فهذه الوصايا تحتاج إلى توطين النفس وترويضها.

وما أجمل أن تربط أمامة بين أجزاء وصيتها حتى تصبح متماسكة قوية، وكأنها قطعة واحدة لا تتجزأ، وكأنها تحذر ابنتها من أن ينسيها آخر الكلام أوله؛ فعمدت إلى ربط الخاتمة بالمقدمة عبر استثمارها لحروف العطف كروابط حجاجية. (١)

- **روابط التعارض الحجاجي بـ " لكن " والاحتجاج بالقياس العقلي:**

الأداة "لكن" تربط الحجج وتكشف عن أسباب القوة بينها؛ حيث تقدم تعارضًا حجاجيًّا بين ما هو مطروح وما هو مستدرك عليه، "ومعني الاستدراك أن تنسب حكمًا لاسمها يخالف المحكوم عليه قبلها " كأنك لما أخبرت عن الأول

(١) بلاغة التعبير عن القيم التربوية في وصية الأعرابية أمامة بنت الحارث لابنتها، صـ٣٤٩٨

بخبر، خفت أن يتوهم من الثاني مثل ذلك، فتداركت بخبره، إن سلبًا وإن إيجابًا" [١]، ولهذا كان لابد من أن يتقدمها كلام مناقض لما بعدها. ومن نماذجها في الوصية قول أمامة:

"**أي بنية إن الوصية لو تركت لفضل أدب تركت لذلك منك ولكنها تذكرة للغافل ومعونة للعاقل**" فمجيء الكلام بهذه الأداة أعطاها شحنة حجاجية ذات هدف إبلاغي تأثيري.

والجملة التعليمية التي صدرتها الأم بقولها "**ولكنها تذكرة للغافل ومعونة للعاقل**" هي استدراك يوحي بعلة واقعية للوصية، ويبعد عن الفتاة شوائب الارتياب أو الشك في ثقة أمها بها، ويطبع الوصية بالطابع الإنساني العام". [٢]

وبتحديد العلة من الوصية بهذه الجملة الواقع فيها "لكن" الاستدراكية والتي أفادت مع الاستدراك التوكيد نجد الأم الحكيمة تبرز الحالات الواجب فيها الوصية ولمن تكون. فالوصية تذكرة للإنسان الغافل عن الحقوق والواجبات، ومعونة لإنسان عاقل يحتاج إلى من يأخذ بيده إلى الطريق المستقيم.

وتنجح أمامة في الانتقاء اللغوي، في اختيار ألفاظ تتناسب مع السياق فقد اختارت التذكرة مع الغافل، والمعونة مع العاقل، لتحقيق الإقناع العقلي عند الفتاة "أم إياس " وكل خطاب يهدف إلى الإقناع يكون له بالضرورة بُعد حجاجي"[٣]

الاحتجاج بالقياس العقلي:

يستمد خطاب الوصية قوته الإقناعية من آلية القياس العقلي الذي ينتقل بالمخاطب من مقدمات منطقية مسلم بها إلى نتائج تدعم صحة الدعوي التي

(١) الجني الداني في حروف المعاني، للمرادي (أبي محمد بدر الدين حسن بن قاسم بن عبد الله بن علي) ت: د. فخر الدين قباوة – والأستاذ محمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية – بيروت، ط. أولي ١٤١٣هـ ١٩٩٢، صـ ٦١٥.

(٢)بلاغة التعبير عن القيم التربوية في وصية الأعرابية أمامة بنت الحارث لابنتها، صـ ٣٤٦٨.

(٣) الاتصال الإقناعي والحجاجي، عبد المالك صاولي، جامعة محمد بو ضياف – الجزائر، مطبوعة للعام الجامعي ٢٠١٧– ٢٠١٨، صـ ١٦

يتبناها مؤلف النص، فمن القياس ما يستند إلى فكرة الطبائع التي فطر الله عليها البشر، حيث تقول أمامة في مطلع الوصية: "**ولو أن امرأة استغنت عن الزواج لغني أبويها وشدة حاجتهما إليها كنت أغني الناس عنه، ولكن النساء للرجال خلقن، ولهن خلق الرجال ...**"

ففي هذه العبارات تبرز الأم حقيقة إنسانية فطر الله عليها البشر وهي حاجة الرجل للمرأة وحاجة المرأة للرجل فلا مجال لاستغناء أحدهما عن الآخر، وليس الأمر مرتبط بغني الوالدين أو كبر سنهما، ومن ثم يحتاجان لابنتهما، فقد جاءت العبارة بالأسلوب الخبري لتقرير حقيقة إنسانية وقد ساقت الأم عللا افتراضية أقرب

إلي العقل والواقع، وقد استثمرت "لكن" الاستدراكية في توضيح حقيقة إنسانية حين قالت " **ولكن النساء للرجال خلقن ولهن خلق الرجال** "

" فهذا الاستدراك يخاطب الفطرة السوية ويقرر في هدوء شدة حاجة الرجل للمرأة وشدة حاجة المرأة للرجل مهما اجتمع لكل منها من أسباب الرفاهية أو دواعي العزوف عن الزواج " (١) "فالمتكلم عندما يستخدم مقدماته العقلية في بداية طرحه فهو يسعي إلي بناء جسور التواصل المقنع بينه وبين مخاطبيه الذين يرغب في انخراطهم معه في التسليم بتلك المقدمات." (٢)

ولجأت أمامة إلى الحجاج العقلي في آخر الوصية عندما ختمت الوصية بالدعاء لابنتها بأن يختار الله لها الخير فقالت: " **والله يخير لك** " وهنا يأتي الأسلوب الخبري لفظًا الإنشائي معني، وتظهر الفطرة النقية عند امرأة جاهلية لم تر نور الإسلام.

لذا " ينبغي للمتكلم أن يبني نصه على ما يُسلم به المتلقي من آراء وأفكار ومعتقدات، وما يؤمن به من قيم ". (٣)

(١) بلاغة التعبير عن القيم التربوية في وصية الأعرابية أمامة بنت الحارث لابنتها، صـ ٣٤٧١

(٢) مفهوم الحجاج عند بيرلمان وتطوره في البلاغة المعاصرة، محمد سالم محمد الأمين، مجلة عالم الفكر، العدد ٣، لعام ٢٠٠٠م، صـ ٨٣

(٣) بلاغة النص التراثي (مقاربات بلاغية حجاجية)، د. محمد مشبال، دار العين – القاهرة، ط. أولي ٢٠١٣م، ص٩

فقد اتخذت أمامة مجموعة من القيم المتعارف عليها في المجتمع العربي خلفية حجاجية تؤسس من خلالها آراءها ومواقفها، وتسعي من خلالها إلى التأثير في المتلقي.

- **أسلوب القصر في الوصية:**

الحجاج بالقصر معناه توكيد مضاعف له بعد حجاجي أعمق، ويستعمل القصر في حال تقرير الكلام وتوكيده في ذهن المتلقي، وحين يكون بالنفي والاستثناء يراد به قصر الشيء وحصره. واستثمرت أمامة القصر في قولها: " **ولا يشم منك إلا أطيب ريح** " والمراد النفي عن أن تفوح من ابنتها أي رائحة غير الرائحة الطيبة. فالعين والأنف من أشد ما تزعج الإنسان؛ لذا حذرت أمامة ابنتها من أن تكون سببًا في نفور زوجها منها بسبب الروائح الكريهة.

- **الشرط ودوره في تماسك أجزاء الوصية:**

الشرط أسلوب لغوي يُبني على جزأين الأول بمنزلة السبب والثاني يتحقق بتحقق الأول، وينعدم الثاني إذا انعدم الأول، فوجود الثاني معلق علي وجود الأول، والشرط جوهر النصوص الحجاجية، وقد حفلت به وصية أمامة، حيث كان الشرط بأدواته أكثر دورانًا في الوصية من باقي الروابط، فتحقق به تماسك النص، وحققت به أمامة مقصدها الإقناعي في الخطاب ففي أسلوب الشرط يحاول المرسل حمل المخاطب على التسليم بحجته وبرهانه؛ لأن الشرط يدعو إلي إعمال العقل، ومن نماذجه في الوصية قول أمامة:

"**إن الوصية لو تركت لفضل أدب ← تركت لذلك منك** "

" **ولو أن امرأة استغنت عن الزواج لغني أبويها، وشدة حاجتهما إليها كنت أغني الناس عنه** "

" **ثم اتقي مع ذلك الفرح إن كان ترحًا، والاكتئاب عنده إن كان فرحًا؛ فإن الخصلة الأولي من التقصير، والثانية من التكدير** "

" **إن افشيت سره ـــــــــــــــــ لم تأمني غدره** "

" **وإن عصيت أمره ـــــــــــــــــ أوغرت صدره** "

يتضح من عرض الشواهد أن أسلوب الشرط كان من أكثر الأساليب حضورًا في الوصية خاصة بعد أسلوبي الأمر والنهي. وقد نوّعت أمامة في استخدام أساليب الشرط وفقًا لمتطلبات السياق.

" فلو من أدوات الشرط التي تستخدم فيما لا يتوقع حدوثه، وفيما يمتنع تحققه، أو فيما هو محال، وتفيد معني الامتناع، وتقيد الشرط بالزمن الماضي" [(١)]، وقد ربطت أجزاء الجملة عبر استخدامها لأداة الشرط" لو" ربطًا قويًّا، حيث أوضحت لفتاتها أن الوصية لو تركت لزيادة الأدب، لتركت لفضل أدب ابنتها وزيادة أخلاقها، ولكنها عللت للشرط فيما بعد، فالأم توصي ابنتها ليس لأنها فاقدة للأدب؛ وإنما توصيها تذكرة لها وعونًا على خوض غمار الحياة الجديدة.

ثم عادت الأم مرة أخري لأداة الشرط " لو " في قولها: " ولو أن امرأة استغنت عن الزواج لغني أبويها، وشدة حاجتهما إليها " فأبرزت حقيقة وفطرة فطر الله عليها الإنسان، وجاءت بجواب الشرط " **كنت أغني الناس عنه** " فقد أوحي الجواب بأن الفتاة ذات أصل ونسب لا تحتاج للمال أو الجاه، وجاءت الأم بعد الشرط بعلل وحجج كفيلة بزرع الثقة في نفس الفتاة.

وقد آثرتْ استخدام " إن " الشرطية في بعض العبارات؛ حيث: " تستعمل (إنْ) في المعاني المحتملة الوقوع والمشكوك في حصولها، والموهومة والنادرة، والمستحيلة وسائر الافتراضات الأخرى، فهي لتعليق أمر بغيره عمومًا." [(٢)]

ففي قول أمامة: " **إن افشيت سره ـــــــــ لم تأمني عذره** "

(١) الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي، ٢٨٠/٢، وتسمى حرف امتناع لامتناع، ومعناه امتناع وقوع الجزاء لامتناع الشرط

(٢) معاني النحو، د. فاضل صالح السامرائي، دار الفكر – الأردن، ط. أولي،١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م،٦٩/٤

فإن الشرطية في هذه الوصية تفيد الشك في تحقق الفعل وقلته وندرته؛ تشير بذلك إلى أن إفشاء المرأة سر زوجها شيء قبيح على خلاف العادة ،والأصل فيه أن يكون نادرًا في الوقوع مستبعدًا.

ولفظ الإفشاء يوحي بمادته وصوته بالانتشار والذيوع، وهو ما يناقض مقتضيات الأمانة الزوجية؛ لذا جاء جواب الشرط: "لم تأمني غدره"

منفيًا بلم الجازمة الداخلة على فعل الأمن ليدل على بداية حل عقدة الحياة الزوجية وانفصامها شيئًا فشيئًا. (١)

وجاء الشرط بالأداة "إن" في قول أمامة: " وإن عصيت أمره أوغرت صدره" وأداة الشرط إن تشير إلى أن الأصل في المرأة أن تكون مطيعة لزوجها والعصيان أمر نادر؛ بل ينبغي أن يكون معدومًا.

ومن مواضع "إن" الشرطية في الوصية قول أمامة: " ثم اتقي مع ذلك الفرح إن كان ترحًا، والاكتئاب إن كان فرحًا ". وقد آثرتْ "إن" الشرطية دون "إذا" لتدل على أنَّ الأصل والغالب في حياة الرجل أنْ يكون فرحًا سعيدًا، وأنَّ الحزن والألم طارئ عليه نادر الحدوث، أو هكذا ينبغي أن تكون حاله.

وحذرتها من الاكتئاب إن كان زوجها فرحًا، ولا تعني أمامة بالاكتئاب الحزن العارض؛ وإنما تعني به المغالاة في التعاسة والنكد، والذي يترتب عليه عدم المشاركة الوجدانية للزوج.

فوصية أمامة بنت الحارث خطاب له نسيج موحد، صادر عن ذات إنسانية ومرتبط بموقف تواصلي؛ ويخاطب ذاتًا إنسانية تتفاعل مع ما تتلقاه بعقلها ومشاعرها.

(١) بلاغة التعبير عن القيم التربوية في وصية الأعرابية أمامة بنت الحارث لابنتها، صـــ٣٤٩٥

الخاتمة

من تحليل خطاب الوصية يتبيّن أن الحجاج ممارسة لغوية واسعة التطبيق من خلال آلياتها، وقد سعت أمامة في تلك الوصية إلى تحقيق الإقناع والتأثير في المتلقي باستثمارها للوجوه البلاغية ذات الشحنات الحجاجيّة، ونوّعت في آليَّات الإقناع ما بين التمثيل والاستعارة الحجاجية وروابط التعليل الحجاجي وصيغ الوصف كالمبالغة والتفضيل، كما وظَّفت الأمر والنهي والنداء وأسلوب الشرط بأدواته المختلفة وأسلوب القصر، ومن ثمَّ جاءت نتائج البحث على النحو الآتي:

أولا–ظهر القصد الإقناعي على رأس أولويات أمامة في الوصية؛ فترتب على ذلك مجيء ألفاظ وعبارات الوصية منساقة لتخدم هذه الغاية.

ثانيًا–شكل خطاب الوصيّة أداة للتواصل والإقناع والتبليغ؛ عبر استثمار أمامة لآليات طبعت بها الوصية بالطابع الإنساني العام.

ثالثًا–تضمنت الوصية مجموعة من المقدمات –الحجج– لخدمة نتيجة كبري مفادها أن التزام الفتاة بتطبيق الوصايا يؤدي حتمًا إلى نتيجة هي نجاحها في حياتها الزوجية.

رابعًا – حملت وصيّة أمامة بنت الحارث بداخلها خطابًا تداوليًّا لأنها تضمنت وصايا صالحة لكل الأجيال وقيم إيجابية وخبرات قادرة على التأثير في سلوك المخاطب.

خامسًا –بنت أمامة وصيتها على حجج محكمة عللت لها بعلل اعتمدت فيها على الوجوه البلاغية، والحجاج العقلي.

سادسًا– خرجت أمامة في وصيتها بالخبر عن مقتضي الظاهر فنزلت المخاطب–ابنتها– خالي الذهن منزلة المخاطب المتردد الشاك، فأكدت الخبر في مواضع كثيرة باستخدام إنّ؛ لأغراض ارتبطت بالسياق.

سابعًا –وظفت أمامة الاستعارة الحجاجية لزيادة الإقناع والإمتاع لدي المخاطب.

ثامنًا –اعتمدت أمامة على النداء المتكرر واستخدمت فيه أداة لها دلالة القرب؛ لاستمالة عاطفة الابنة نحوها ولضمان انتباها.

تاسعًا –ألبست أمامة وصيتها إيقاعات نغمية لها قدرتها التأثيرية في إقناع المخاطب باشمارها للسجع والجناس.

عاشرًا – وظفت أمامة الأفعال التوجيهية باستخدامها للصيغ الطلبية كالأمر والنهي، والتي جاءت للنصح والإرشاد ومنها ما جاء بدلالته الحقيقية في الإلزام والوجوب.

حادي عشر –من الروابط الحجاجية التي استثمرتها أمامة في تحقيق التماسك النصي والإقناع وربطت من خلالها المقدمات بنتائجها حروف العطف لاسيما العطف بالفاء الواقعة في بداية الجملة التعليلية.

ثاني عشر – اعتمدت الوصية على الإقناع العقلي؛ لذا قلَّ المجاز فيها، واعتمدت أمامة في أغلب عبارات الوصية على الحقيقة؛ لتغلق باب التردد والتأويل أمام ابنتها، وما جاء من صور استعارية كان الغرض منه توضيح الفكرة لتستقر في ذهن الفتاة.

ثالث عشر– السجع من أبرز آليات الحجاج التي استخدمتها أمامه في وصيتها لتحمل الفتاة على التسليم والاقتناع فضلًا عن أن الوصايا ذات صبغة إقناعية.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
١. آليات الإقناع في كتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه، للقاضي الجرجاني، د. عبير عليوة إبراهيم، بحث منشور في حولية كلية اللغة العربية– الزقازيق، المجلد ٤١، العدد١، لعام٢٠٢١م.
٢. آليات الحجاج اللغوي وشبه المنطقي لوصايا الحكماء في العصر الجاهلي، مقاربة تداولية، علاء الدين أحمد الغرايبة، جامعة الزيتونة، مجلة العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة، المجلد ٤٦، ع ٤، ٢٠١٩م.

٣. الاتصال الإقناعي والحجاجي، عبد المالك صاولي، جامعة محمد بو ضياف – الجزائر، مطبوعة للعام الجامعي ٢٠١٧– ٢٠١٨م.
٤. الأدب الجاهلي (قضاياه، وأغراضه، أعلامه، فنونه)، د. غازي طليمات، والأستاذ: عرفات الأشقر، مكتبة الإيمان – القاهرة، ط. أولي ١٤١٢هـ – ١٩٩٢م.
٥. أدب الوصايا في نهج البلاغة قراءة في خصائص الأسلوب، د. مزاحم مطر حسين، مجلة القادسية للعلوم الإنسانية، المجلد الرابع عشر، العدد الرابع، لعام ٢٠١١م.
٦. أساس البلاغة، للزمخشري (أبي القاسم محمود بن عمر بن أحمد)، ت: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية– بيروت، ط. أولي،١٤١٩هـ– ١٩٩٨م.
٧. استراتيجيات الخطاب (مقاربة لغويّة تداوليّة)، عبد الهادي بن ظاهر الشهري، دار الكتاب الجديد المتحدة– بني غازي، ط. أولي ٢٠٠٣م.
٨. أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني (أبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي)، ت: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني – القاهرة ومطبعة المدني بجدة.
٩. الأعلام، لخير الدين الزركلي (خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس) ، دار العلم للملايين – بيروت، ط. ١٥، ٢٠٠٢م.
١٠. بديع القرآن، لابن أبي الإصبع المصري، تقديم وتحقيق: حفني محمد شرف، مكتبة نهضة مصر بالفجالة، ط١، ١٣٧٧هـ– ١٩٥٧م.
١١. البرهان في علوم القرآن، للزركشي (أبي عبد الله بدرالدين محمد بن عبد الله) ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة – بيروت، ١٩٧٢م.
١٢. بلاغة التعبير عن القيم التربوية في وصية الأعرابية أمامة بنت الحارث لابنتها ليلة زفافها، د. تامر محمد أحمد حجازي، بحث منشور في مجلة كلية اللغة العربية بأسيوط– جامعة الأزهر، العدد٣٨، الجزء ٤، لعام ٢٠١٩م.
١٣. بلاغة الخطاب وعلم النص، د. صلاح فضل، الشركة المصرية العالمية لونجمان – القاهرة، ط. أولي ١٩٩٦ م.
١٤. البلاغة العربية (البيان والبديع)، د. عزة محمد جدوع، مكتبة الرشد– الدمام، ط. أولي، ١٤٣٥هـ–٢٠١٤م.

١٥.بلاغة النص التراثي (مقاربات بلاغية حجاجية)، د. محمد مشبال، دار العين – القاهرة، ط. أولي ٢٠١٣م.

١٦. بلوغ الأماني في علم المعاني، د. منال محمد بسيوني، مكتبة المتنبي– الدمام، ط. أولي ١٤٢٦هـ– ٢٠٠٥م.

١٧.تاج العروس من جواهر القاموس، للزبيدي، لمجموعة من المحققين، مطبعة الكويت، ط٢، ٢٠١٠م.

١٨.التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، الدار التونسية– تونس، ١٩٨٤م.

١٩.جمهرة الأمثال، لأبي هلال العسكري (الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد)، دار الفكر – بيروت، د.ت.

٢٠.جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، لأحمد زكي صفوت، المكتبة العلمية – بيروت، د.ت.

٢١.الجني الداني في حروف المعاني، للمرادي (أبي محمد بدر الدين حسن بن قاسم بن عبد الله بن علي) ت: د. فخر الدين قباوة – والأستاذ محمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية – بيروت، ط. أولي ١٤١٣هـ ١٩٩٢م.

٢٢.الحِجاج، كريستيان بلانتان، ترجمة: عبد القادر المهيري، مراجعة عبد الله صولة، دار سيناترا، المركز الوطني للترجمة، تونس، ط١، ٢٠٠٨م.

٢٣.الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، د. عبد الله صولة، دار الفارابي– بيروت، ط. أولي ٢٠٠١م.

٢٤.الحجاج في اللغة، لأبي بكر العزاوي ضمن كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته (دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة)، إعداد وتقديم: حافظ علوي إسماعيل، عالم الكتب– الأردن، ط. أولي ٢٠١٠م.

٢٥.الحجاج مفهومه ومجالاته (دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة)، إعداد وتقديم: د. حافظ إسماعيل علوي، عالم الكتب الحديث – الأردن، ط. أولي ٢٠١٠م – ١٤٣١هـ.

٢٦.الحياة الأدبية في العصر الجاهلي، د. محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل – بيروت، ط. أولي ١٤١٢هـ – ١٩٩٢م.

٢٧.خطاب الوصية في التراث العربي (مقاربة في بلاغة الحِجاج)، رسالة ماجستير للباحث: إبراهيم سماني، إشراف، بو جمعة عمارة، لسنة٢٠١٦-٢٠١٧م.
٢٨.شرح عقود الجمان في علم المعاني والبيان، للحافظ: جلال الدين السيوطي، دار الفكر – بيروت، د.ت.
٢٩.شرح قطر الندي وبل الصدى، لابن هشام (جمال الدين عبد الله بن يوسف بن أحمد)، ت: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط. القاهرة، ط١١، ١٣٨٣هـ .
٣٠.طرائق الحجاج في التوقيعات الأندلسية، د. عامر محمود ربيع، المجلة الأردنية في اللغة العربية وآدابها، المجلد ١٧، العدد٣، لعام ٢٠٢١م.
٣١.والعقد الفريد، لابن عبد ربه الأندلسي، دار الكتب العلمية – بيروت، ط. أولي ١٤٠٤هـ.
٣٢.علم المعاني (دراسة في الانزياح الأسلوبي)، د. عزة محمد جدوع، مكتبة المتنبي- الدمام، ط. ثانية ١٤٣٨هـ-٢٠١٧م.
٣٣.علم المعاني، د. عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية – بيروت، ط. أولي، د.ت.
٣٤.العوامل الحجاجية في اللغة العربية، د. عزالدين الناجح، مكتبة علاء الدين صفاقس -تونس، ط. أولي ٢٠١١م.
٣٥.في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، د. طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء- المغرب، ط. ثانية، ط ٢٠٠٠م.
٣٦.في بلاغة الخطاب الإقناعى (مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية)، د. محمد العمري، افريقيا الشرق- المغرب، ط- ثانية٢٠٠٢م.
٣٧.القاموس المحيط، للفيروز آبادي (مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب) ، ت: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة -بيروت، الطبعة: الثامنة، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م.
٣٨.لسان العرب، لابن منظور، (أبي الفضل محمد بن مكرم)، دار صادر- بيروت، ط٣، ١٤١٤هـ.
٣٩.اللغة والحجاج، د. أبو بكر العزاوي، العمدة- الدار البيضاء، ط١، ١٤٢٦-٢٠٠٦م.

٤٠.المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، لابن الأثير (ضياء الدين نصر الله بن محمد) ت: أحمد الحوفي وبدوي طبانة، دار نهضة مصر – القاهرة، د.ت.

٤١.مجمع الأمثال، للميداني (أبي الفضل أحمد بن محمد بن إبراهيم)، ت: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار المعرفة – بيروت، د.ت.

٤٢.المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، دومينيك مانغونو، ترجمة: محمد يحياتن، الدار العربية للعلوم– بيروت، ط. أولي١٤٢٨هـ–٢٠٠٨م.

٤٣.معاني النحو، د. فاضل صالح السامرائي، دار الفكر – الأردن، ط. أولي،١٤٢٠هـ–٢٠٠٠م.

٤٤.المعجم الفلسفي، د. جميل صليبا، دار الكتاب اللبناني– بيروت، ط١، ١٩٨٢م.

٤٥.المعجم الوسيط، (مجمع اللغة العربية)، مكتبة الشروق الدولية –القاهرة، ط. رابعة ٢٠٠٤م.

٤٦.مفهوم الحجاج عند بيرلمان وتطوره في البلاغة المعاصرة، محمد سالم محمد الأمين، مجلة عالم الفكر، العدد ٣، لعام ٢٠٠٠م.

٤٧.مقاييس اللغة، لابن فارس (أبي الحسين أحمد)، ت: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر– بيروت، ط١، ١٣٩٩هـ–١٩٧٩م.

٤٨.نحو بلاغة جديدة، د. محمد عبد المنعم خفاجي، د. عبد العزيز شرف، مكتبة غريب، القاهرة، د.ت.

٤٩.نظريات الحجاج (قراءة في نظريات معاصرة)، د. جميل حمداوي، مجلة المنهاج، العدد٧٠، لعام ٢٠١٨م.

٥٠.نظرية أفعال الكلام العامة كيف ننجز الأشياء بالكلام، أوستين، ترجمة: عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق– الدار البيضاء، ط٢، ٢٠٠٨م.

٥١.الوصايا والمواعظ الذهبية في الإسلام والجاهلية، لمجهول، ط. أولي ١٤١٨هـ – ١٩٩٧م.